قطــوف من
حدائق السنة المطهرة

الأستاذ الدكتور
محمود محمد محمد عماره
الأستاذ بجامعة الأزهر

مكتبة الإيمان بالمنصورة

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع
المنصورة ـ أمام جامعة الأزهر
تليفون: ٣٥٧٨٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

ربما سئلت سؤالاً عابرا.. فكان جوابه حديثا شريفا.. يطمئن به قلب السائل.. ثقة بحديثه ﷺ.. يجريه الله تعالى على لسان مسؤول يعرف معنى ما يقول.. وقيمة ما يقول.

ولكن.. على الجانب الآخر.. وفيما يتعلق بالمسؤول.. فإن القضية لا تنتهى.. وإنما تبدأ مع الحديث الشريف مرة أخرى.. حين ينصرف السائل.. ويجد المجيب نفسه من الحديث الشريف فيما يشبه الحديقة الغناء.. والتى لم تقطف من ثمارها إلا تلك الثمرة المتعجلة.. والتى أهديتها إلى عابر السبيل..

إن الحديث مازال يعطيك من معانيه.. من ثماره وأسراره.. كلما اقتربت منه.. وأصغيت بعقلك وقلبك إليه..

وهذه الأحاديث شيء من هذا القبيل: لقد جاءت عبر محاضرات عامة.. تعقيبا.. أو تصويبا.. فلما انفردت بالحديث بعيدا عن الأصدقاء من المستمعين.. بدت من دقائقه.. ورقائقه.. ما يجعل منه واحة ظليلة.. ينبغى أن نحط رحالنا فى حماها.. فلعنا واصلون إلى ما يشفى الغليل.

وإذن.. فلم تنتظم هذه الأحاديث قضية واحدة.. تدور حولها... ولكنها فى مجموعها.. أدوية لعلل سرت فى أمتنا.. ومن أسرارها.. نطب لها.. آملين أن يدرك القارئ الكريم أن السنة المطهرة.. مع تقادم العهد.. ومع الجهود الضخمة التى بذلت فى شرحها.. إلا أنها مازالت حقلاً بكرا.. وافر العطاء لكل من تقدم إليها بزاد من الإخلاص.. والذكاء.. والخبرة.. ولسوف تعطيه من لدنها زهرا نضيرا.. وثمرا شهيا

والله المستعان... ومنه الهداية... وبه التوفيق...

د. محمود محمد محمد عماره

الأستاذ بجامعة الأزهر

مظاهر اليسر
فى قضية أبى اليسر

كان «أبو اليسر» الأنصارى تاجرا يبيع التمر. فأتته امرأة. . فأعجبته. . فقال لها: إن فى البيت أجود من هذا التمر. فذهب بها إلى بيته فضمها إلى نفسه. وقبلها. فقالت له: اتق الله. فتركها. وندم.

فأتى رسول الله ﷺ فأخبره بما فعل.

فقال ﷺ: «**أنتظر أمر ربى**». فلما صلى صلاة العصر. نزلت: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**﴾ [1].

فقال ﷺ: «**نعم. اذهب. فإنها كفارة لما عملت**».

ورُوى أنه أتى أبا بكر فأخبره. فقال: استر على نفسك. وتب إلى الله فأتى عمر رضى الله عنه . فقال له مثل ذلك.

وروى أن عمر قال: أهذا له خاصة. أم للناس عامة؟. فقال: «**بل للناس عامة**»، وفى رواية قال الرجل: يارسول الله إلىّ هذه؟ قال: «**هى لمن عمل بها من أمتى**».

وروى أن رسول الله ﷺ قال له: «**توضأ وضوءا حسنا. وصل ركعتين. إن الحسنات يذهبن السيئات**»[2].

وفى رواية قال الرسول: «**فإنك من خطيئتك كيوم ولدتك أمك..**».

وفى رواية قال الرجل: يارسول الله أقم فىّ حد الله. . مرة أو مرتين. . فأعرض عنه. ثم أقيمت الصلاة. . فلما فرغ قال: «**أين الرجل..**».

●●●●●

(١) سورة هود: ١١٤.

(٢) الزمخشرى.

تمهيد

لم يكن للصحابة رضوان الله عليهم كبائر.. وإنما الصغائر التى كانوا يعُدونها.. الموبقات... المهلكات... من شدة خشيتهم لله تعالى...

ولأنها بالإصرار عليها تصبح كبائر... تحاشَوْها.. صادرين فى ذلك عن قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [1].

وفى ذلك يروى أنس رضى الله عنه قال: «إنكم لتعملون أعمالا هى أدق فى أعينكم من الشَّعَر.. إن كنا نعُدها على عهد النبى ﷺ: الموبقات..»[2]. أى المهلكات..

ومن أجل ذلك حذَّر الرسول ﷺ من هذه الذنوب التى يحتقرها فاعلها فى قوله ﷺ:

«ياعائشة: إياك ومحقَّرات الذنوب فإن لها من الله طالبا»[3].

وعلى هذا الأساس.. بنى الصحابة رضوان الله تعالى عليهم حياتهم. فكانوا لا ينظرون إلى حجم الذنب.. لكنهم كانوا ينظرون إلى عظمة من أذنبوا فى حقه سبحانه.. فكان منَ المخطئ هذا الندم الشديد إذا نزغه من الشيطان نزغ راجعا على نفسه باللوم.. راجيا ربه المغفرة.

ومنهم أبو اليسر رضى الله عنه.. موضوع حديثنا والذى كانت توبته «لقاحا» لم يعد بعدها إلى ذنب أبدا.

●●●●●

---

(١) سورة النور: ١٥.

(٢) رواه البخارى ـ عمدة القارى جـ٢ ١/ ٨٠.

(٣) أخرجه النسائى وابن ماجه وصححه ابن حبان.

مدخل

مازلت أذكر ذلك الفتى الذى جاء يبثنى شكواه:

لقد فَرضت عليه طبيعة عمله أن يكون مع زميلته فى العمل.. فى حجرة واحدة.. وحدث ما لم يكن فى الحسبان:

فقد استدرجهما الشيطان.. فرضِيَت أن يقبِّلها.. وعندئذ قامت قيامته.. وهو يريد أن يكفِّر عن سيئته.. هذه السيئة التى لم تتجاوز اللمس.. وكان فى استطاعته أن يمضى فى رحلة العصيان كما يريد الشيطان!.

وقلت له: لقد فعلها من قبلك «أبو اليسر» رضى الله عنه.. فتعال ننظر ماذا جرى.. لعل فيه تبصرة وذكرى.

ونتساءل أوّلا: هل كان يمكن أن يحدث ماحدث.. لو كان مع الرجل والمرأة ثالثٌ: محرم أم غيره؟.

بالطبع: لا..

وإذاً فقد صَدقت السُنَّة الشرعية المقررة فى الإسلام: «**ما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما..**»

والمفروض أن هذه المرأة شريفة عفيفة.. بالإضافة إلى أن أبا اليسر أنصارى.. يحمل فى كيانه خصائص الأنصار التى نوه بها القرآن.

وإذن.. فلم يتوافر للذنب هنا عنصر التربص والإصرار.. ولكنه فُرض فرضا.. حين كانت الخلوة الشرعية.. والتى يُهرع إليها الشيطان ليضرب ضربته فى الوقت المناسب..

موقف المرأة:

ويبدو أن «أبا اليسر» رضى الله عنه غافل المرأة.. وهجم عليها تحت ضغط الغريزة الناشز.. فكان ماكان. بدليل أنها قالت له: اتق الله.. فتركها: لقد خرجت الموعظة من القلب.. فوصلت إلى القلب.. فى لحظة يغيب فيها الوعى.

الإرادة القوية:

ويعنى ذلك أن الإرادة لم تتخل عندئذ عن صلاحية العمل.. فتدخلت فى اللحظة الحرجة. فتأبّى الرجل على الشيطان.. وتوقفت نزوة العدوان.. وتلك نقطة تحسب له.. لا عليه.

رد الفعل:

كان الخطأ متوقعا.. لأن كل بنى آدم خطاء.. ولكن المهم ماذا بعد هذا الخطأ؟

لقد احتوى الرجل هم ثقيل.. باحثا عن سبيل يخرجه من هذه الدوامة التى تُنغص عليه حياته.. لقد صحا القلب.. وأرّقه ماحدث.. وإذن فقد بدت تباشير الفرج: ذلك بأنه إذا كانت قيمة الأشياء تهبط بكسرها.. فإن صلاح القلب فى انكساره واعتباره..

وها هى ذى تباشير التوبة تلوح فى أفق حياته.. بانكسار قلبه.. وهاهو ذا ينيخ راحلته ببابه تعالى.. هذا الباب العالى.. والذى لم يُغلق فى وجه عاص أبدا..

إنها الرحمة السابغة.. واليد المبسوطة بالعطاء بالليل.. وبالنهار.. وعين الرحمن الرحيم الذى تكلأ حتى العاصى وهو نائم.. كأنه ماعصاه؟!.

الحل العملى:

كان الرجل ينتزع خطاه.. مغمورا بخجل من سوء ماصنع.. فى حق ولى نعمته تعالى. . وتكاد نسمعه يقول:

وتخجل من ملوحتها دموعى إذا ذَكَرتْ شمائلَك العذابا

ولكن الرجل يجفف الدموع.. ليُهرع إلى الصدِّيق رضى الله عنه. فلعله أن يعينه على أمر الله تعالى..

وحين يبث الصدِّيق شكواه.. ينصحه بالستر على نفسه.. ولكنه لا يكتفى بنصيحة الصدِّيق.. وكان من الممكن أن يجعل منها متّكأ يضع حدا لعذابه..لكن قوة الندم فى قلبه تسوقه إلى عمر رضى الله عنه.. وناهيك بشدة عمر فى الحق.. والتى لم تمنع الرجل من استشارته متحملا ماقد يصنعه عمر معه..

لكن الفاروق يكرر نصيحة أبى بكر.. مؤكدا.. أن الستر أجمل بالعاصى.. لاسيما وقد استيقظ ضميره.. ونابت النفس اللوامة عنا فى محاكمته على نحو لم يعد يذوق معه للراحة طعما.

مغزى موقف الصاحبين

إن العاصى كالفراش الذى يتقحَّم.. يندفع إلى النار.. ويندفع بغَشَم.. والعاصى كذلك.. كهذا الفِراش.

وبينما الإسلام يحجُزه.. لكنه مصرّ على أن يُهلك نفسه بالمعاصى.. ويعنى ذلك أن هذا العاصىَ فيه مافى الفَراشة من تسرع وحمق.. ثم ضعف فى البصر يفقده التمييز إلى جانب الجهل بالعواقب.. وكل ذلك مما يفرض الوعى بموقف العاصى.. الذى ينبغى أن يثير شفقتنا عليه.. ورحمتنا به.. فى الوقت الذى يؤكد ضرورة الرفق بالإنسان.. العائد إلينا.. وإلا.. فإن الشدة هنا سوف توافينا بما يُحبط مسعانا..

ولنتعلم من الطبيعة حولنا: إن كل أصوات الدمار.. صارخة.. مدوية.. صاخبة.. انظر إلى تلك النخلة الفرغاء.. والتى سقطت على الأرض: إن لسقوطها دويا.. وفرقعة.. وإنها لتَسْحَقُ ماتحتها: من خضرة.. ونبات.. وطيور.. وقد تهدِم بيتا عامرا..

قارن هذا بالنسيم العليل: إنه يحمل الملايين من حبوب اللقاح إلى كل الأشجار دون أن يكون له صوت.. إنه ينقل بذور الود والجمال والظلال.. والسلام..

من مثل هذه المعانى.. انطلقت نصيحة الراشدِين..

النفس اللوامة تباشر سلطانها:

لقد كانت محاولات «أبى اليسر» مع أبى بكر وعمر.. كانت تهدف إلى إعانته على حلٍّ عملى ينجيه من مواجهة الرسول ﷺ. ولكنه تحت ضغط نفسه اللوامة.. يقرر أن يقف بين يدى رسول الله ﷺ ليقضى فيه بحكم الله تعالى.

ولاحظ من صدق توبة الرجل ـ كما تقول بعض الروايات ـ لاحظ أنه يقول:

يارسول الله: أقم فىَّ حد الله.. قالها مرتين.. والرسول يُعرض عنه..

ثم أقيمت الصلاة فلما فرغ قال: «**أين الرجل**». والذى أخبره بأن الصلاة كانت كفارة له.. بل إنها غسلت كل أو ضاره أو ناره ليعود كيوم ولدته أمه.. شريطة ألا يعود لمثلها أبدا.

موقف الصحابة:

ويحرك الموقف شوق الصحابة إلى المغفرة فيتساءلون علي لسان عمر. أهذا للرجل خاصة.. أم للناس عامة..

وكانت لحظة مباركة حين أخبرهم الرسول ﷺ أن الآية النازلة له.. ولكل من عمل بها إلى يوم القيامة.

فالحسنات... يذهبن السيئات. والتوبة تَجُبّ ما قبلها من الذنوب مهما كانت أحجامها وأعدادها.

الأصل القرآنى:

والأصل القرآنى هنا هو قوله تعالى:

﴿قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا﴾ [الزمر: ٥٣].

فالإسلام دين واقعى يقول هنا للمسرف: فعْلا. أنت مسرف على نفسك. ولكن.. فى نفس اللحظة يأمره بما يدفع اليأس قبل أن يعشّش فى قلبه.. جاعلا الرجاء بديلا عنه. وذلك قوله: **﴿لا تقنطوا..﴾**. لا تقنطوا من رحمة مَنّ؟ من رحمة: العزيزة القادر.

ولقد قال المفسرون: إن هذه الآية الكريمة أرجى آية فى كتاب الله تعالى:

١ ـ فقد أضاف العباد إلى نفسه تشريفا وإيناسا.

٢ ـ وإذا نهى المسرفين عن القنوط.. فغيرهم ممن هو أقل ذنوبا.. أولى.

٣ ـ ثم إن الله تعالى يغفر الذنوب جميعا.. واللام هنا للجنس وهذا يعنى: غفران كل ذنب.. مهما كان.

هاربون إلى الله:

إن الذنوب.. قدر البشر.. وليس الشأن ألا تذنب.. ولكن الشأن: ألا تقيم على الذنب. أن تستدبر الدنيا التى خَدَعتْك فأوقعتك فى الدنيا يوما.. ليظل هذا الذنب ماثلا فى وعيك.. مجددا ندمك الواصل بك يوما إلى القرار. واستمع معى إلى واحد من هؤلاء التائبين:

أنا... ما أصنع باللذا	ت..؟ شُغلى بالذنوب
إنما العيدُ لمـــن فـــا	ز بوصلٍ مـــن حبيب
أصبح الناس على رو	حٍ.. وريحانٍ وطيب
ثم أصبحت على نوح	وحـــــزن ونحيب
فَرِحـوا حـين أهَلُّوا	شهرهم بعـد المغيب
وهِـــــلالِى متوارٍ	من وراحُجْبِ الغيوب
فَلِهَذا قلت لِلَّذا	ت.. غيبى. ثم غيبى
وجعلتُ الهم والحز	ن.. من الدنيا نصيبى
ياحياتـــى ومماتـــى	وشفائـــــى وطبيبى
جُد لنفسٍ تتلظـــى	منك بالرحب الرحيب

انتظار الفرج:

من أفضل العبادات: انتظار الفرج. لماذا؟

١ ـ لأنه حسن ظنٍّ بالله تعالى.

٢ ـ ثم هو قطع للأمل بالمخلوق.

٣ ـ ثم تمحيضُ الأمل فى الله تعالى وحده.

٤ ـ وذلك كله يعنى: رسوخ عقيدة التوحيد..

وكذلك كان أبو اليسر رضى الله عنه.

وصحيح أن الاعتراف بالذنب مرُّ المذاق.. لاسيما من رجل شريف كان الذنب فى حياته سحابة صيف. وإذا كانت الشجرة مرة.. لكن ثمرها حلوُ المذاق.. وقد تحمل الرجل المرارة.. وصولا إلى هذه الثمرة.. ولقد وجدها فى مثل قوله تعالى: **﴿قل ياعبادى الذين أسرفوا﴾**. **﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾**.

فيالها من بشارة ترتاح لها قلوب المؤمنين. المحسنين ظنهم بربهم الصادقين فى رجائه. الخالعين لثياب القنوط. الرافضين لصنوف الظن بمن لا يتعاظمه ذنب. ولا يبخل بمغفرته، ورحمته على عباده المتوجهين إليه فى طلب العفو. الملتجئين به فى مغفرة ذنوبهم.

ومأأحسن ماعلل سبحانه به هذا الكلام قائلا: إنه هو الغفور الرحيم. أى: كثير المغفرة والرحمةً. عظيمُهما. بليغُهما. واسعُهما. فَمَنْ أبَى هذا التفضل العظيم. والعطاء الجسيم. وظن أن تقنيط عباد الله وتيئيسهم من رحمته أولى بهم مما بشرهم الله به.. فقد ركب أعظم الشطط. وغلِط أكبر الغلط.

فإن التبشير وعدم التقنيط هو الذى جاءت به مواعيد الله فى كتابه العزيز. والمسلُك الذى سلكه رسوله ﷺ كما صح عنه من قوله: **«يسروا، ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا»**[١].

يقول ابن قيم الجوزية[٢].

(والمقصود: أن تركيب الإنسان على هذا الوجه - يعنى مركبا من الشهوة والغضب - هو غاية الحكمة. ولابد أن يقتضى كل واحد من القوتين أثَرَه:

فلابد من وقوع الذنب.. ولابد من ترتب آثار هاتين القوتين عليهما.

ولو لم يُخلقا فى الإنسان لم يكن إنسانا. بل كان مَلَكا.. فالترتُبُ من موجبات الإنسانية. كما قال ﷺ: «كل بنى آدم خطاء. وخير الخطائين التوابون».

فأما من اكتنفتْه العصمة، وضُرِبت عليهم سرادقات الحفظ، فهم أقل أفراد النوع الإنسانى. وهم خلاصته ولُبّه).

---

(١) فتح القدير ج٤/ ٤٦٩، ٤٧٠.

(٢) مفتاح دار السعادة ٣١٩ وما بعدها.

من حكم الابتلاء بالذنوب:

يقول الشيخ:

ومنها: أن الله تعالى إذا أراد بعبده خيرا. أنساه رؤية طاعته. ورفعها من قلبه ولسانه.

فإذا ابتلى بالذنب جعله نُصْب عينيه، ونسى طاعاتِه. وجعل همه كله بذنبه. فلا يزال ذنبه أمامه، إن قام، أو قعد، أو غدا، أو راح.

فيكون هذا عين الرحمة فى حقه، كما قال بعض السلف: إن العبد يعمل الذنب.. فيدخل به الجنة.. ويعمل الحسنة. فيدخل بها النار؟!!.

قالوا: وكيف ذلك؟! قال: يعمل الخطيئة. فما تزال نصب عينيه.. كلما ذكرها بكى.. وندم.. وتاب. واستغفر. وتضرع. وأناب إلى الله. وذلَّ لهُ وانكسر..وعمِل أعمالا.. فتكونُ سببَ الرحمة فى حقه.

ثم يعمل الحسنة.. فلا تزال نصب عينيه: يَمُنّ بها. ويراها. ويعتدّ بها على ربه !! - وعلى الخلق.. ويتكبر بها.. ويتعجب من الناس.. كيف لا يُعظِّمونه؟ ويُكرمونه. ويُجلُّونه عليها.. فلا تزال هذه الأمورُ به حتى تقوى عليه آثارها. فتُدخِلُه النار..

فعلامة السعادة: أن تكون حسنات العبد خلف ظهره. وسيئاته نُصْب عينيه. **وعلامةُ الشقاوة:** أن يجعل حسناته نصب عينيه. وسيئاته خلف ظهره.

ومنها: أن شهود العبد ذنوبه موجب له أن لا يرى لنفسه على أحد فضلا وله على أحد حقا.

فإنه يشهد عيوب نفسه. فلا يظن أنه خَير من مسلم يؤمن بالله ورسوله.. بل هو فى نظر نفسه أقل من أن يُحسن إليه أحد..

ويرى أن من سلَّم عليه أو أسدى جميلا.. فقد أحسن إليه.. فاستراح وأراح الناس من شكايته وغضبه. فما أطيب عيشه. وما أنعم باله. وما أقر عينه.

وأين هذا ممن لا يزال عاتبا على الخلق شاكيا ترك قيامهم بحقه ساخطا عليهم.. وهم عليه أسخط؟.

ومنها أن شُغْله بعيبه.. شَغَله عن عيوب الناس.. فطوبى له. وحسنُ مآب.

ومنها بتصرف أيضاً:

أن من أذنب يشهد نفسه مثل إخوانه الخطائين. وشَهد أن المصيبة واحدة.. والجميع مشتركون فى الحاجة. بل فى الضرورة إلى مغفرة الله تعالى وعفوه ورحمته.

فكما يجب أن يستغفر له أخوه المسلم.. كذلك هو أيضاً: ينبغى أن يستغفر لأخيه المسلم.. فيصيرُ وِرْدُه الدائم: «**رب اغفر لى ولوالدى وللمسلمين والمسلمات وللمؤمنين والمؤمنات**».

ومنها أن المذنب إذا شهد نفسه مع ربه مسيئا مفَرِّطا.. مع فرط إحسان الله تعالى إليه فى كل طرفة عين.. وبره به.. ودفعه عنه.. وشدة حاجته إليه.. فكيف يطمع أن يكون الناس معه كما يحبُّ. وأن يعاملوه بمحض الإحسان. وهو لم يعامل ربه بتلك المعاملة.

وكيف يطمع أن يطيعه مملوكه وولده وزوجته فى كل ما يريده ولا يعصُونه وهو مع ربه ليس كذلك؟.

وهذا يوجب له أن يستغفر لُمسيئهم ويعفُو عنه. ويسامحه..

فإذا لم يشعر العبد بذلك. وفقد ذلك الإحساس، فهى علامة الشقاوة وأنه من هوانه على الله، وسقوطه من عينه.. خلّى بينه وبين معاصيه ليقيم عليه حجة عدِله.. فيعاقبه باستحقاقه.

وتتداعى السيئات فى حق مثل هذا.. فيتولد من الذنب الواحد ماشاء الله من المتالف والمعاطب. التى يهوى بها فى دركات العذاب:

والمصيبة كلُّ المصيبة: الذنب الذى يتولد من الذنب..ثم يتولد من الاثنين ثالث... فرابع.. وهلم جرا.

فالحسنات والسيئات: آخذ بعضها برقاب بعض: يتلو بعضها بعضا. ويُثمر بعضها بعضا.

قال بعض السلف: إن من ثواب الحسنة.. الحسنة بعدها.وإن عقاب السيئة.. السيئة بعدها.

من أساب الخطأ

يخطئ الإنســان. . ثم يتعلم من خطئه لـكن خطأه الحقيقى عندمـا يسرف فى لوم الآخرين. على مثل ماسبق أن تورَّط هو فيه. .

إنه لا يصبر على خـطأ الآخرين جاهلا بسعة رحمته تعالـى. . والذى هو سبحانه أصبر حتى على من يعبد غيره. إنه مع شركه: يعافيه. . ويرزقه!!.

إنه تعالى: رحمان . . رحيم.

والرحمان. أبلغ من رحيم. . مثل: جوعان وجائع.

ويعنى. الرحمانُ: بلوغ الرحمة منتهاها.

ويعنى الرحيم: ملازمة الرحمة له.

ومادامت الرحمة سابـغة. . ودائمة. . فلم لا نشفق على أنفـسنا بالأمل. . وعلى الآخرين بالتماس الأعذار لهم؟.

محاسبة النفس:

إننا مكلفون بمباشرة واجبنا العملى. والذى يتلخص فى:

١ ـ أخذ الأمور بالعزائم.

٢ ـ سرعة الحسم.

٣ ـ الصبر.

٤ ـ استحضار مراقبته تعالى.

٥ ـ الخلوة. . لأن الحساب لا يتيسر فى الخلطة.

فطرة الحياء:

إن الحياء فطرة. . قبل أن يكون مطلبا إيمانيا. .

ومن أجل ذلك كان غيابه خسارة كبرى. . يتحمل كبرها من تأبّى على دافعَيْن من

فطرته وإيمانه.. فلم يستجب لهما.. وآثر البذاء على الحياء.. فكان من أهل الجفاء..
وكان الجاهلى فى عمايته أكثر منه بَصَرا بعواقب الأمور:

كان عنترة العبسى يعاتب صاحبته المشفقة عليه من خوض الأهوال. واقتحام غمرات الحروب. والتعرض لهلاك وشيك.

ويجيبها صاحبها البطل مطالبا إياها بالحفاظ على فضيلة الحياء. وأنى لبطل مثِله أن يتراجع. والحرب الضروس قَوِىَ فيها البأس واحمرت الحَدَق؟!! فيقول:

بكَرتْ تخوفنى الحتوف كأننى	أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل
فأجبتها. إن المنية منهل	لابد أن أسقى بكأس المنهل
فاقنْى حياءك لا أبالك واعلمى	أنى امرؤ سأموت.. إن لم أُقتل

وهكذا يبقى الحياء.. سيد الأخلاق..

وصدق القائل:

هبْ البعثَ لم تأتنا رسْله	وحَاجِمةُ النار لم تُضْرَمِ
أليس من الواجب المستَحقّ	حياءُ العباد من المُنعم؟!

أهمية الحياء

وعندما ذهب الحياء.. جاء الشيطان ليضرب ضربته فى غيابه.. فلما استيقظ الحياء قويا.. فى قلب الرجل.. بدأت به عودتهُ الراشدة إلى الله تعالى..

وإذن فالحياء ركيزة البناء الأخلاقى فى للأمة.. وهو نسيجها فى رأى جمال الدين الأفغانى.

فإذا ذهب الحياء .. قال له الصلاح: خذنى معك!!.

فإذا لم يستح المرء مما يقبُح شرعا.. فهو فاسق.

وإذا لم يستح مما يقبح عقلا.. فهو مجنون.

وإذا لم يستح مما يقبح عُرفا.. فهو أبله.

ولك أن تتصور مجتمعا هذه أفراده إنه مجتمع. فاسق.. مجنون.. أبله! !. وإذا لم تستح.. فاصنع ما شئت.

وهكذا فعلت المرأة التى تحايلت عليك حتى سرقت ثروتك.. ثم سُجِنت.. ثم طلبت منك مساعدتها!.

إنها ذلك الفتى الوقح والذى قتل والديه ثم طلب من القاضى الرحمة.. لأنه أصبح يتيماً!!. ونسىَ آثار فأسه! !.

من فقه الحديث:

«والذى نفس محمد بيده: لو لم تذنبوا لذهب الله بكم. ولجاء بآخرين: يذنبون فيستغفرون. فيغفرُ الله تعالى لهم».

وفى رواية:

«والذى نفس محمد بيده: لم لم تذنبوا لخَشِيتُ عليكم ماهو أشدُّ من الذنب وهو: العجب بالنفس»[1].

فى محاولة البحث عن ملك يمشى على الأرض.. أى: عن رجل يصون الود، ويحفظ العهد: كعسل مصفى.. أو لبن لم يتغير طعمه.

محاولة الوصول إلى هذا النموذج العالى.. محاولة فاشلة.. لأنها ضد طبائع الأشياء. فما دام الإنسان يمشى على الأرض فلابد أن يناله ترابها..

والحق سبحانه وتعالى يقول: **﴿ولو جعلناه مَلَكا لجعلناه رجلا﴾**.

أى أنه سبحانه لو جعل الرسول مَلَكِا.. فلابد أن يكون فى صورة رجل ينسجم مع طبيعة هذه الأرض.. ولا يمكن أن يظل عليها ملكا..

وإذن.. فالذنوب قَدَر الناس: لابد أنهم مواقعوها.. ولا يستطيعون ردها.

أما الذى يستطيعونه فهو. الدخول فى معركة مع الشيطان. هذا الشيطان الذى لا يستطيع اقتحام حمانا والقرار فيه.. لو أننا استطعنا أن نجْعل أسوارنا تعلو بالتَّوبة يوما بعد يوم!. هذا الشيطان الذى يزين لك المعصية.. فتستمتعُ بها يوما..

---

(١) رواه البزار بإسناد جيد، وفى الترغيب برقم ٤٢٩٥.

ثم تكتشف فى النهاية أنك ذلك الرجل الشاعر الذى يستمتع بالجبال حين تغيب من خلفها الشمس. . وهى هى الجبال التى تحجب عنه الشمس أيضاً. .

وكم للشيطان فى التزين من أساليب ماكرة. . وإنَّ زعما واحدا باطلا، ليحجب ألف حقيقة ! !.

[من فقه الحديث]

ومن فقه الحديث الشريف: أنه لا يحرض على الذنوب. .

وإنما هو كاشف عن طبيعة الإنسان. . الذى لن يكون فى يوم ملكا. . بلا خطايا.

أ ـ فمن ناحية العقيدة: فإن منْ صفاته تعالى أنه غفور رحيم، ولن تُعطَّلَ هذه الصفة يوما. . وإنما هو تعالى دائما غفور رحيم.

ب ـ وطبيعة الإنسان أنه خطاء. .

جـ ـ وواقعه يؤكد ذلك. . فأى الناس تصفو مشاربه؟!.

وقَسم الرسول ﷺ ليس شكا فى القضية. . وإنما يقسم فقط لأهميتها وتركيز الانتباه عليها. . فرارا بالمسرفين من القنوط.

ثم هو قَسم عظم بمن نفسه فى يده. . قابض عليها. . قادر فى كل لحظة على إخماد أنفاسها. .

وإذن. . فمهما كان الإنسان حريصا. . فلابد أن يباشر الذنب. . والكمال المطلق لله تعالى. . والمعصوم هو رسوله الكريم ﷺ.

ويعنى ذلك حاجة الإنسان المتجددة إلى الاستغفار. .

ومما يلفت النظر هنا أن عصمة الرسول ﷺ لها دلالتها، فهو المعصوم. الذى يُبشِّر الخطائين. وليس هو الخطَّاء. . حتى لا يقول ملحد: خَطَّاء يرحم الخطائين !

[أبو اليسر والراهب]

كان من يقظة أبى اليسر رضى الله عنه أنه لم يسترْسل مع وساوس الشيطان. . . الذى يدغَدغ إرادة الإنسان رويدا. حتى يوقعه فى الحفرة أخيراً.

فهو يُمثّل المدرسة التى قال الله تعالى فيها:

﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ [الأعراف: ٢٠١].

أما الراهب فهو يمثل مدرسة الغافلين. . الذين يسوّفون. . وفى النهاية يسقطون.

عن على رضى الله عنه قال: إن راهبا تعبد ستين سنة. وأن الشيطان أراده فأعياه. فعمد إلى امرأة مريضة. ولها إخوة. فقال لإخوتها: عليكم بهذا القس. . فيداويها.

قال: فجاؤا بها إليه. فداواها. وكانت عنده.

فبينما هو يوما عندها. إذا أعجبته فأتاها. فحملَت. فعمد إليها فقتلها.

فجاء إخوتها. . فقال الشيطان للراهب: إنا صاحبك. . إنك أعييتنى أنا صنعت هذا بك. . فأطعنى أنْجك مما صنعتُ بك. فاسجد لى سجدة. فسجد له. . فلما سجد له قال الشيطان إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين. . فذلك قوله تعالى. **﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك..﴾**[الحشر: ١٦].

لقد كان أبو اليسر ماضى الإرادة. . قوىَّ العزيمة فأحبط وسوسة الشيطان وهو فى ذرة النشوة.

فلما استعتب من ذنبه. . أعنى: لما طلب المعتبة وهى المعذرة. وذلك خطاب الدلال ومذاكرة الموجدة. . لما فعل ذلك. غُفر له ما تقدم من ذنبه.

أما الراهب الشيخ: فقد خانته شجاعته. . لَمَّا قطع عليه الشيطانُ الطريق ورماه بهذه المؤامرة. والتى تؤكد ما سبق أن المْحنْا إليه وهو أن الخْلوة داعيةٌ إلى الذنب. . مهما كانت درجة المتقى. .

[الهدف البعيد]

كان هدف هذه المؤامرة الشيطانية الماكرة توريط الشيخ فى الفحشاء حتى إذا فعل فعلته. . اتخذها ذريعة إلى فتنة الشباب. بعد أن كان تَوَرُّط الشيخ مسوغا لذلك!.

ومن دروس الموقف.. هذا الاستدراج.. الذى استنزل به إبليس الرجل من قمة الطهر إلى حضيضَ الفاحشة.

لقد كان الشيطان الرجيم يريد أن ينتصر على الراهب.. فلم ينتزع البساط من تحت قدميه هكذا.. فجأة.. وبعنفٍ يوقظ فى الراهب روح المقاومة المتشبثة بهذا البساط.. ولكنه سحبه من تحته.. برفق... ومكر.

وكان ذلك الرّمْلَ الناعم.. الذى احتوى الراهب فى نهاية المطاف.. ودون أن يدرى كيف غاصت قدماه.

وتأمل كيف ورّطه الشيطان فى هذا المسلسل الدموى.. إنه كما قلنا الاستدراج الذى يُحذِّرُ العصاة منه.. ولنعد إلى طفولة الانسانية لنرى نفس المعنى.. فلعلنا نقى أنفسنا من نفس المصير.

لقد حَسَد قابيل أخاه هابيل الذى استأثر دونه بتوأم قابيل الجميلة. ثم وسوس له الشيطان وزين له ذلك القياس الخاطىء الذى دافع به عن باطله وهو: هى توأمى.. فأنا أحق بها..

وحتى عندما عاين البرهان.. إذْ قُبل قربان أخيه هابيل ولم يُقبل قربانه.. لقد عاند البرهان.. ولم يُذعن لدواعى الإيمان.. وقرر قتل أخيه الذى كان يمنعه من قتله مانعان:

أولاً: هو أخُوة.

وثانياً: هو شرع الله.. وكان عليه أن يطيعه، ولكن نفسه طوّعت له قتل أخيه فقتله..

وهو الدرس المستفاد من قصة الراهب.. الذى يجب أن نذكِّر بها من هَمَّ بالمعصية.. ليكون على حذر من كيد الشيطان وقبل أن يذهب به فى الأرض حيران.

تعرضت امرأة لشيخين فى الطريق.. تغريهما.. فبكى أحدهما. فقال له صاحبه: لم تبكى؟ قال: لأنها لم تفعل ذلك إلا لأن شيخين قبْلنا. قَبِلاَ ذلك منها؟!!.

وتأمل فى موقف هذا الشيخ رقة قلبه.. وإذا رَقَّ القَلب.. نَدِيت العين بالدموع!.

ثم تأمل ذكاء عقله الذى نظر إلى المشكلة لا بروح التشفى.. وإنما بمحاولة دراستها.. ورجعها إلى أسبابها.. رغبةً فى وضع حد لها..

وما أكثر البكائين على خطايا البشر.. لكنهم لا يملكون إلا الدموع. وماذا يفعل الدمع المسفوح إزاء شرٍّ يتسع مداه..

إنك لن تستطيع الصعود إلى القمة.. ويداك فى جيبك!، والكيسُ الفارغ لا ينتصب أبدا.

لابد إذن لمواجهة المنكر من موقف عملى يستهدف استئصال شأفته.

لابد من دراسة ظاهرة الانحراف.. حتى إذا وقعنا على أسبابها هناك فى الأعماق.. بدأ العلاج أيضاً من هناك.. من الأعماق!.

وبعد:

فقد كان ﷺ استيقظ من الفجر.. نهض واقفا من فراشة.. ومرة واحدة..

لم يكن يتمطى فى الفراش الدافئ.. وإنما ينهض.. وفجأة حتى لا يمكِّنَ الشيطان بالتمطى من أن يوسوس بالخلود إلى لذة الكرى.

لقد كان يحسم القضية.. رافضا أن يتردد.. وكذلك كان.. «أبو اليسر» رضى الله عنه..

وهو ما أشار إليه الشاعر القائل:

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة　　　فإن فساد الـــــرأى أن تترددا

[عود على بدء]

إن الله سبحانه وتعالى أهل للتقوى.. وأهل للمغفرة.. والعبد التائب من الذنب.. أهل بهذه التوبة.. لمغفرة الله تعالى.. فلماذا تحرق أعصابنا كلما رأينا مذنبا.. ولا نحاول الوقوف إلى جانبه.

لقد قلت للفتى الغاضب اللائم لأخ له.. يحاول أن يضع قدمه على الطريق

الصحيح.. قلت له:

بَدَل أن تَشْغل نفسك بالتدنى قائلا له: من أعمالكم سلط عليكم.

بدل هذا. اشغل نفسك بالأعلى:

بأن تدعو له أن يخلصه الله تعالى من ورطته..

ومن بركات هذا الدعاء أن يحميك أنت شخصيا من الوقوع فى مثل ما وقع فيه.

فليكن لكلٍّ شأنه الذى يغنيه !!.

والمفروض ألا يقع الذنب ابتداء.. فإن وقع فلابد من الإقلاع والرجوع إلى الله تعالى.. يحملنا على الرجوع ما نعلمه من سعة رحمته تعالى.

عن قتادة قال: بلغنا أن النبى ﷺ قال:

«لو يعلم العبد قدر عفو الله تعالى ما تورع من حرام».

ولو علم قدر عقابه لبخع نفسه.. «أى قتلها».

وعنه ﷺ أنه: مر على نفر من أصحابه وهم يضحكون فقال:

«أتضحكون والنار بين أيديكم؟»

فنزل قوله تعالى: **﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾** [الحجر: ٤٩].

[واجب العبد]

وإذا كانت مغفرته تعالى بهذه السعة وهذا الشمول.. فإن من واجب المذنب أن يفعل أفضل ما يليق به وهو: اتخاذ الخطوات العملية فى الاتجاه الصحيح عائدا إلى ربه.

أولاً: مغادرة مكان المعصية.

ثانياً: مفارقة خلان السوء.. الذين زينوها له أو زينها لهم.

إن التوبة قد تكون نصوحا.. لكن الشيطان لا ييأس.. ومازال يراقب الموقف عن كثب.. فإذا التقى سمار الليالى بعد مباشرة التوبة.. فإنه يضرب ضربته !.

وقد قلت لمن اكتشفت أن خطيبها القديم نزل فى نفس المنزل فحرك فى قلبها

أشجان الماضى.. قلت لها: لا تخبرى زوجك.. حتى لا تشتغل الغيرة فى قلبه..

وثانيا لابد من مغادرة المكان.. والفرار من أشباح ماض تولى..

إن تكرار الرؤية نخلّ به عزيمة الإنسان رويدا.. ونعوذ بالله من الكفر بعد الإيمان.

●●●●●

شجاعة الاعتراف بالحق

أخرج البخارى[1] عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه. عن النبى ﷺ:

«أن رجلا كان قبلكم رغسه[2]. الله مالا. فقال لبنيه لما حضر. أىَّ أب كنت لكم؟ قالوا: خيرَ أب.. قال: فإنى لم أعمل خيرا قط. فإذا مت فأحرقونى. ثم اسحقونى. ثم ذرُونى. فى يو عاصف. ففعلوا فجمعه الله عز وجل فقال: ما حملك قال: مخافتك !!

فتلقَّاه برحمته»

وفى رواية «**فغفر له**».

وفى رواية «**مخافتك يارب**».

تمهيد

للقصة الإسلامية دورها المرموق فى حمل الناس على الاعتبار لأنها:

١ ـ صادقة فى أخبارها.

٢ ـ رفيعة فى بيانها.

٣ ـ سامية فى أهدافها.

وهذه قصة رجل أسرف على نفسه.. إلى الحد الذى استطاع. وعلى مدى عمره الطويل أن يخفى الوحش الكامن فى نفسه.. فلم يتمكن أولاده الملازمون له.؛ من رؤيته على حقيقته..

ويبدو أن الترف المغْرق كان من وراء ذنوبه.. لأن الرواية لا تقول: أعطاه الله مالا.

وإنما «رغسه» أى كانت ثروته نامية.. لا يحصيها العادون. وإذن.. فقد أعانته الثروة الوفيرة على التفنن فى إخفاء حقيقة نفسه الأمارة بالسوء.

---

(١) برقم ٨٣ ـ ورواه مسلم ج ١٠/ ١٨٤.

(٢) رغسه: أعطاه مالا كثيرا. والرغْس: النماء والخيْر.: أى: أكثر له الله ماله وبارك له فيه.

ولكن الله تعالى أراد أن يسبق عليه الكتاب... ليكون من أهل الجنة وكان من النار على خطوة واحدة!.

إن ماضى الرجل الكئيب.. يحجب الأفق اليوم بين يديه.. ثم ها هو ذا يملك شجاعة الاعتذار.. الاعتراف.

الاعتراف.. ليس بذنب واحد قد يُتجاوزُ عنه.. وإنما هو الاعتراف بمسلسل من الذنوب واكب عمره المديد..

لقد أذنب.. وهذا هو الذى حدث، ولكنه اليوم يعترف.. وهذا هو واجبه.. ومن وراء هذا الاعتراف خوف عارم من عقاب الله تعالى..

ويعنى ذلك أن الرجل يستيقظ، وفى اللحظة الأخيرة.. ليعلم أن له ربا.. وأنه يغفر الذنوب جميعا.. ولكن بأى وجه يلاقيه سبحانه..

بأى وجه يلاقيه.. وطالما تودد إليه سبحانه بألطافه.. بينما ظَل الرجل سادرا فى إجحافه!.

إنها غريزة الحياء.. تنبعث.. وبكل طاقتها.. فتهز كيان الرجل.. الخائف الوجل.. وما أحوجنا إلى الحياء من الله تعالى.. سبيلا إلى فطم النفس عن العدوان.

إنه ﷺ.. ومن أفقه الطهور يطرد اليأس عن أمته.. بقدر مايدعوهم إلى التوبة استئنافا للحياة من جديد.. وأمامك على الطريق رواد..

رواد.. ضحك عليهم الشيطان يوما.. لكنهم أفاقوا.. ثم فروا إلى الله فى رحلة مباركة.. ومنهم ذلك الشاعر القائل:

أين فؤادى؟ أذا به الوجد وأين قلبى.. فما صحا بعْدُ
ياسعد: زدنى جوى بذكر همو بالله زدنى.. فديتَ يا سعد!!

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ أتى بسارق قد سَرَق.

فقال: **«اذهبوا بصاحبكم فاقطعوه»**.

وكأنما أُسِفَّ [1] «أى وجه النبى ﷺ رمادا - ثم أشار بيده. - يُخفيه -

فقال بعض القوم: كأن هذا شقَّ عليك؟ فقال: «لا ينبغى أن تكونوا أعوان الشيطان. أو إبليسَ. فإنه لا ينبغى لولىٍّ أمرٍ أن يُوتَى بحدٍّ إلا أقامه» والله عفوٌّ يحب العفو . ثم قرأ:

﴿وليعفوا وليصفحوا﴾ [2].

وفى رواية :

«كيف لا يشق علىّ وأنتم أعوان الشيطان على أخيكم» [3].

المفروض أن المذنب يعيش أضعف أوقات حياته. . وقد يكون الذنب طيشا. . اندفاعا عشوائيا. . قد يعُدُّه بعضُنا شطارة أو مغامرة. . قد يهَشُّ له وجه العاصى؟!.

لكن الذنب إذا كان جريمة مخلة بالشرف. كالسرقة مثلا. . فإن المذنب عندئذ لا يكون فقط ضعيفا أمام نفسه وأمام المجتمع. . وإنما يحس بالهوان الذى يتمنى معه أن يموت.

ومن واجبنا أن ننقذه قبل أن يسقط فى القاع. . فلعل فى خبايا نفسه بقايا من مروءةٍ لم تجد من يُحسنُ استثمارها.

وهذه بعض مقاصد الحديث الشريف. . أن تكون مع المذنب ضد الشيطان، ذلك بأن الذين يُعينُون الشيطان على أخيهم ألوان:

١ - فمنهم الحاقد.

(١) تغيّر وجهه الشريف فكأنما ذُر عليه رماد.

(٢) السنن الكبرى للبيهقى ٨/ ٣٣١ - كنز العمال ٥/ ٣٠٦.

(٣) كنز العمال: ٥/ ٣٠٦ عن أبى نعيم.

٢ - ومنهم من يصفى حسابات قديمه.

٣ - ومنهم المخلص المتشدد.. وكلهم مخطئون ! !.

والصواب هنا: أن نتمثل روح الستر فى الإسلام..! إلا إذا صارت المعصية. تحديا ومغايظة.. وعادة.

أما بعد..

فإذا كنا باسم الإسلام نرفض العنف فى مواجهة الخطائين لتحكم المشاعر الإنسانية فإن لنا كلمة نقولها لأناس يعترضون على حد السرقة إشفاقا على المذنب.. وإهدارا لحق المسروق..

لقد قالوا: كيف تقطع اليد فى بيضة؟

ونقول لهم: ذلك بما قدم السارق من خلل فى نسيج المجتمع.. ومازلتُ أذكر ذلك الرجل الطيب.. والذى كان يعلق على باب داره مصباحا يهدى السائرين.. ولكن سارقا ماكرا تعقَّبه.. فكان يسرق المصباح أوّلا.. بأوّل وكانت النتيجة أن امتنع الرجل الطيب عن تعليق المصباح.. فعمّ الظلام.. وعم الخوف.. وكان ماكان مما لست أذكره !!.

●●●●●

من أسرار الاستخارة

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قـال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها. كما يعلمنا السورة من القرآن. . يقول: إذا هم أحدكم بالأمر. فليركع ركعتين من غير الفريضة. ثم ليقل:

«اللهم إنى أستخيرك بعلمك. وأستقـدرك بقدرتك. وأسألك من فضلك العظيم. فإنك تقدر. ولا أقدر. وتـعلم ولا أعلم. وأنت علام الغيوب. اللهـم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خـير لى فى دينـى ومعاشى. وعاقبـة أمرى. . أو قال عاجل أمـرى وآجله. فاقدره لى. ويسره لى. ثم بارك لى فيه. وإن كـنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ومعاشى وعاقـبة أمرى وآجله. . فاصرفه عـنى. واصرفنى عنه. وقدر لـى الخير حيث كان. ثم ارضنى به» قال: ويسمى حاجته».

لأن الإنسـان محدد الـقدرة. . قلـيل العـلم. . فـإنه لا يواجـه الأحداث بقـدرته المحددة. . ولا بعلمه هذا القليل. .

وإنما هو فى حاجة إلى القادر العليم. . سبحانه وتعالى ليكون معه تفضلا وكرما. .

ومن أجل هذا شرعت الاستـخارة التى يحث عليها الحديث الـشريف. . استنزالا لمعونته سبحانه وتعالى.

فيم تكون الاستخارة:

كما يقول علماؤنا: لا تكون الاستخارة فى الواجبات ولا المحرمات. . فهى قضايا محسـومة من قبل المشـرع سبحانه وتعـالى. . وإنما تكون فـى المباحات التى يـريد المرء واحدا منها. . ومن أهميتها أن يعلمها ﷺ. . كما كان يعلم السورة من القرآن. .

اهتماما بها. . وتعرضيا لبركاتها. . واحتراما لها. . والمحافظة عليها. .

متى تكون الاستخارة:

تمضى خواطر الإنسان مبدوءة بالهم. . ثم الخاطره. . ثم حديث النفس. . وهذه لا مؤاخذة عليها.

وتكون الاستخارة عند أول الهم.. لا عند النية التى يكون بها قد عزم على الفعل عزما..

لماذا الركعتان أولا:

ذلك بأن دعاء الاستخارة خطير: لأنه جمع بين صلاح الدين وصلاح الدنيا.

وإذن.. فلابد من قرع باب الملك بأدب.. بما يناسب هذا المطلوب..

ولما كانت الصلاة: تعظيما.. وثناء.. وافتقارا.. وذكرا.. لما كانت كذلك.. كان من السنة استهلال الموقف بهذه الركعات.

ولاحظ أن الحديث يقول: «ثم ليقل».

وثم تفيد التراخى.. ويعنى ذلك أن يكون هناك ببين الركعتين والدعاء.. تهيؤ واستعداد روحى.. لهذا الدعاء.. وذلك باستدبار ما تبقى فى النفس من مشاهد الدنيا..

ثم يقول: اللهم! وهو أرفع ما يستفتح به الدعاء.. ذلك بأن الميم من حروف الضم..أى الجمع.. فأنت فيها تجمع بين شفتيك ومعنى ذلك أنك تدعو الله بجميع صفات كماله وجماله سبحانه ثم إنك تستفتح بعلمه تعالى المحيط.. لا بعلمك القاصر.. وما أطلبه من فضلك أنت يارب.. وليس لى فيه حق ابتداء.. ثم «رضنى به» وتلك تمام النعمة.

فمن لم يرض تنغص.. ومن تنغص لم تتم عافيته.. فإذا قضى الله لك بأمر فارض به.. وإلا كنت مسيئا.. فاللهم وفقنا إلى ما يرضيك عنا..

واجعلنا من الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه.

●●●●●

أيام .. مباركات

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال ﷺ:

«تفتح أبواب الجنة يوم الإثنين. ويوم الخميس. فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئا. إلا رجلا كانت بينه وبين أخيه شحناء. فيقال: «انظروا هذين حتى يصطلحا» رواه مسلم[1].

ما أكثر ما يعصى العباد ربهم.. ومع ذلك لا يسلبهم سبحانه نعمه جزاء وفاقا..

وليس هذا فقط.. إنه يتودد إليهم ليفيقوا من سكرة العصيان.. ثم ليعودوا إلى حظيرة الإيمان.. وها هو ذا سبحانه يبسط يده بالليل.. ليتوب مسىء النهار.. ويبسط يده بالنهار.. ليتوب مسىء الليل..

وفى هذا الحديث يتجلى للعصاة بعد آخر من أبعاد مغفرته سبحانه وإحسانه: فالجنة تفتح أبوابها يوم الإثنين ـ ويوم الخميس.

ويعنى ذلك: إتاحة الفرصة أمام المسلمين ليقلعوا عن كل ما اقترفت أيديهم من ذنوب.. مرتين كل أسبوع.. إلا من أشرك به سبحانه شيئا.. فأولئك عنها مبعدون.. وإلا فريقا من المؤمنين تجاهلوا روح الإسلام.. فتباغضوا وتنافروا.

فهل القطيعة بين مسلمين.. خطيرة النتائج إلى هذا الحد.. حتى تغلق الجنة فى وجوههم.. كما تغلق فى وجوه المشركين؟!

إن من معانى الخصام: فتح عين السخط.. وإغماض عين الرضا..

وعين الرضا عن كل عيب كليلة   كما أن عين السخط تبدى المساويا

وإذن.. فسوف يعود المتخاصمان كلاهما إلى الدفاتر القديمة بحثا عن عيوب الغريم الجديد.

ولك أن تتصور الجو العكر بألوان الاتهام.. ولك أيضا أن تحكم بالضياع على مجتمع ضاعت الثقة بين أبنائه.. وهى ركيزة التقدم.

---

(١) عن رياض الصالحين، باب النهى عن التباغض.

فإذا تعقلت معنى الشحناء فى اللـغة وجدتها مزيجاً من الحدة.. والطرد والدفع.. وحرارة الانفعال.

وهى أيضاً: تغير الرائحة من شحن السقاء إذا تغيرت رائحته من ترك الغسل..

كل ذلك ينبئك بجو الخصام المشحون بالتوجس والتربص.. والرغبة فى الانتقام.

وبين من؟ بين أصدقاء الأمـس القريب.. والذين يعلم كل واحـد من أسرار زميله مالا يعلم الآخرون.. فهم القادرون على نشر الغسيل القذر تحت الشمس !.

من أجل ذلك يحذر الحديث من الخصام.. بالحرمان من الجنة.

ثم بـزمالة المـشركـين فى الطـرد من رحمـة الله.. وهذا وحـده كاف فى تـلافى الشحناء.. ثم تكرار الجملة مرتين.. تأكيدا..

مع الأخذ فى الاعتبار أن الحديث لا يسلب المتخاصمين معنى الأخوة التى ما تزال تربط بينـهما مع كل ما حدث.. وذلك قولـه « كانت بينه وبين أخيه» إبـقاء على خط الرجعة مفتوحا.

ولا يغلق الحديث الباب فى وجوه المتخاصمين.. وإنما هو مفتوح بين أيديهم.. إذا دفعوا الثمن وعادوا إلى العهد القديم أصفياء، وللذين يصومون الإثنين والخميس نقول: صيامكم موقوف حتى تبدأوا من هجرتم بالسلام.

وبعد: فإذا رفضت الجنة أن تستقبل المتخاصمين فكم يكون الجرم عظيما أمام الذين نفثوا سـمومهم بين الأخوين فـكان هذا الخصام.. فلنـساعد الصديقين عـلى الوئام.. وليحذر الذين يوقدون النار.. وليحذر السـاكتون الذين يرون نار العداوة تتسع.. ثم لا يطفـئونها بل.. يعـينون بالسكـوت على اشتعال الحـريق.. وأغلب ظنى أن الانـفعال الغاضب قد يوسع رقعة الخلافة بين اثنين يدافع كلاهما عن نفسه بما يظنه حقا والمسئولية الكبرى على ذلك الجالس الهادئ؛ لأنه وحده القادر على حسم النزاع.

●●●●●

من مظاهر الرحمة

فى شرع الله

روى البخارى: «إن الله كتب الحسنات والسيئات. ثم بين ذلك. **«فمن همّ بحسنة فلم يعملهـا.. كتبها الله تعالى عنده حسنـة كاملة.. وإن همّ بها فعملها.. كـتبها الله عنده عشر حسنات.. إلى سبـعمائة ضعف.. إلى أضعاف كثيرة. وإن هم بسيئـة فلم يعملها.. كتبها الله عنده حسنة كاملة.. وإن هم بها فعملها.. كتبها الله سيئة واحدة»**.

*****

تمهيد

إنها لنعمـة عظمى أن يكلفنا ربنـا سبحانه بما نُحصِّل به الحسنـات.. وننأى به عن السيئات..

فالتكليف ابتداء.. نعمة.. تنضم إليها نعمة أخرى هى: نعمة البيان والتفصيل كما يشير الحديث الشريف «ثم بيَّن ذلك».

يقول ابن قيم الجوزية:

«عن الوجوه الدالة على وجه الحسن فى أصل التكليف والإيجاب نقول.

لا ريب أن إلزام الناس شريعة يأتمرون بأوامرهم الـتى فيها صلاحهم. وينتهون عن مناهيها التى فيها فسادهم.. أحسن عند كل عاقل من تركهم هملا كالأنعام: لا يعرفون معروفا. ولا ينـكرون منكرا. وينزو بعـضهم على بعض نزو الـكلاب والحُمرُ. ويعدو بعضهم على بعض عدو الذئاب والسباع.

ويأكل قويهم ضعيفهم.. لا يعرفون الله ولا يعبدونه، ولا يذكرونه ولا يشكرونه. ولا يمجدونه. ولا يدينون بدين بل هم من جنس الأنعام السائمة.

ومن كابر عقـله فى هذا.. سقط الكلام معـه. ونادى على نفسه بغـاية الوقاحة. ومفارقة الإنسانية»

أصل المعصية:

تعود المعصية.. إما إلى الجهل.. وإما إلى الشهوة.

فهناك عاص بسوء ظنه بالله سبحانه وتعالى.. فقد يرى أنه لو أطاع ربه ما عوّضه الله تعالى.. ومن ثم.. يؤثر المعصية.. وقد يكون عارفا.. لكن الشهوة تغلبه.

وما هى النتيجة؟

النتيجة طبعا ليست فى صالح العصاة.

فالعصاة: طلاب دنيا.. وهم فى سعيهم اللاغب.. ينتقلون من لذة إلى أخرى أكبر.. ولما كان عالم الأجسام ما من درجة فيه إلا وهناك ما هو أكبر منها.. فما أشقى طلاب الدنيا إذن.

أما أهل الإيمان: فحالتهم مستقرة.. مستمرة.. والإيمان فى قلوبهم جندى عامل.. يواجه معهم وساوس الشيطان.. فلا يقترب من ساحتهم.. وإذا اقترب.. فسرعان ما يتذكرون فيعودون إلى الصراط المستقيم.

الفرق بين العاصى.. والمطيع

إذا مضى العبد على حل شعره فى طريق العصيان.. ماذا يحدث؟ إنه سيمضى من سيء إلى أسوأ. ذلك بأنه يرى ذنوبه كومة من القمح. فذنبه حبة صغيرة.. ومن ثم.. فلا يراها تزيد الكومة لصغرها.. وحتى إذا دعته نفسه إلى ترك المعصية فإنه لا يأبه بها.. لأن عزل حبة واحدة.. لا يخلف أثرا.

هذا فى الوقت الذى يرى فيه التائب.. الذى يغالب نفسه.. يرى ذنبه كأنه الحجر.. وعندما تغلبه نفسه يوما.. يرى الكومة تزداد.. لأن جرم الحجر واضح.

فإذا أقلع.. وبدأ فعلا رحلة العودة إلى ربه بالتخلص من ذنوبه.. بان الأثر.. لأن عزل حجر وراء آخر.. يترك المكان واسعا.. مشعرا بالأثر الفعال. يفعل ذلك ورائدة تلك التجربة:

ينبغى على المرء.. إن عزم على فعل الشر لا محالة.. ينبغى عليه أن يؤخره.. وإذا عزم على فعل الخير.. فليعجله.. لأن فعل الشر إذا فاته.. فلن يضره.. وسينفعه.. والخير إن فاته.. يضره ولا ينفعه.. بل ربما عظمت عليه ندامته وحسرته.

مقصود الحديث الشريف:

والحديث الشريف دعوة إلى الطاعة.. سبيلا إلى تحصيل الثواب.. ثم الفرار من المعصية.. تفاديا للعقاب.. ويعنى ذلك أنه يقف إلى جانب الإنسان.. آمرا.. وناهيا آخذا بيده إلى الجنة.. بعد ما زحزحه عن النار.. فى جوٍّ من التفاؤل بدت تباشيره بتقديم كتابة الحسنات على السيئات.. تحريضا للمكلف على أن يأخذ سبيله إلى الحسنة.. تحقيقا لمنفعته هو شخصيا.. فإذا أدار ظهره للسيئة.. توفر له جناحان صاعدان به إلى الفردوسِ الأعلى.

معنى الكتابه:

وكتابة الحسنات والسيئات لا تعنى الجبر والإلزام.. وإنما كتبها الحق تعالى. أى: علمها.. والعلم ليس من صفات التأثير.. بمعنى أنه لا يدفعك من خلفك لتحسن أو تسيء.. وإنما هو صفة كاشفة.. ثم يكون الجزاء تأسيسا على اختيار الإنسان لنفسه.

الدور الإنسانى:

ماهو موقف الإنسان العملى إزاء الحسنة أو السيئة؟

لقد كشف الحديث الشريف عن الدور الإنسانى الفعال.. وكيف كان الإنسان سيد مصيره.. فمن أبصر فلنفسه.. ومن عمى فعليها.. ولعلنا نسترشد هنا بما حدث يوم أن شرع الأذان.

لقد كان الوحى الأعلى يحسم كل القضايا.. ولا يذرها كالمعلقة مهما بدت صغيرة أو كبيرة لكنه ـ وفى شعيرة الأذان ـ لا يتم برؤيا يراها الرسول ﷺ.. وإنما يراها صحابى جليل.. تأكيدا لدور الإنسان الفاعل فى مسيرة الدعوة المباركة.

مظاهر اليسر:

ويطالعنا من الحديث الشريف من مظاهر اليسر.. ما يشهد برحمته تعالى بنا.. وشفقته علينا بالإضافة إلى ماقدمنا.

أ ـ لقد قدّم الحديث الشريف «الهمّ بالحسنة» حُسنَ ظنٍّ بالمسلم الذى ينبغى أن يقبل عليها.

فإذا عقد العزم عليها.. ثم لم يفعلها.. لم تسقط من حسابه كما هو شأننا فى دنيانا.. وإنما كتبتْ لِحسابه.. وكيف؟.

كتبها تعالى «عنده».. والعندية تعنى الرعاية والاعتناء.. فالله تعالى «عنده حسن المآب»و «وعنده مفاتح الغيب».

ثم إن وصفها بالكمال قاضٍ على هاجس من هواجس النفس التى قد لا تظن كمال التعويض.. لأن المكلف لم يباشر الحسنة فعلا - ولكنه فقط.. همّ بها. ألا إن الهم بالحسنة سبب إلى عملها.. وسبب الخير خير.

يقول النووى هنا:

« وقوله .. عنده إشارة إلى الاعتناء بها. وهى عندية شرف ومكانة وقوله «كاملة» للتأكيد وشدة الاعتناء.

وقال فى السيئة التى همّ بها..ثم تركها. «كتبها الله عنده حسنة كاملة.. فأكدها بكاملة».

وإن عملها كتبها سيئة واحدة». فأكدها بواحدة.. ولم يؤكدها بكاملة».

ب - وعندما يفعل المسلم ماكلف به من حسنات.. فإنه بهذه الحسنات فى رضوان من الله تعالى.. يُحسّ. ولا يوصف.. وهو لون من الحفاوة بالطائعين.. إلى جانب الشفقة على المذنبين.. لينهضوا.. ثم ليواصلوا المسير.

وهذا عن الهم «أما الخطرة التى تخطر ثم تنفسخ من غيرهم ولا عزم ولا تصميم. فليست كذلك[١].

حكمة الإسلام:

وإذ يحرص الإسلام بهذه السماحة على الطاعة.. فإنه يعلم الدعاة ليكونوا كذلك. فليست هذه السماحة تهاونا.. وإنما هى الثقة بفطرة المسلم التى قد تحب الحق.. لكن شواغل الدنيا تمنعه.. ومن ثم فلنقف إلى جانبه.

---

(١) دليل الفالحين ج١/ ٦٨.

لقد كان عبد الله الملقب بالحمار.. كان سكيِّرا.. ومع ذلك فقد كان يحب رسول الله ﷺ لم يمنعه حبه للرسول.. من المعصية.. كما وأن معصيته.. لم تذهب بحبه للرسول ﷺ وإذن فالرجل واقع فى الأسر. أسر الشهوات.. فلنحاول أن نحرره.. لا أن نَنْحَره ! !

إن للمعصية ضغطا.. وجاذبية.. وعنفوانا، فالعاصى: ولد الناقة الذى يتخلف عن أتباع أمه.. والعصعصى: أقوى عظم فى الجسم.

والعصا: أمارة الشدة. وعصَّى: بمعنى اشتد..

كل أولئك داع إلى الرفق.. والمسامحة فى حسابه كما أشار الحديث إلى ذلك.. لا تهاونا.. وإنما هو الاستعلاء بالعاصى ليغير اتجاهه.. ونذكر هنا كيف كان وصف السيئة «بواحدة» مأخوذا من القرآن الذى عبر عن هذا اللطف بقوله تعالى: **﴿فلا يجزى إلا مثلها﴾** ، وكان يكفى أن يقال: سيجزى مثلها.

من مظاهر فضل الله تعالى:

الناوى لعمل الخير.. والذى عمله فعلاً.. لهما الأجر من الله تعالى.. لكن اختص العامل بالتضعيف دون من نوى..

والأصل فى ذلك قوله تعالى: **﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾**.

وقوله تعالى: **﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾**.

وقد جاء فى دليل الفالحين تصويرا لهذه الأضعاف.

«وكثيرة هذه وإن كانت نكرة. إلا أنها أشمل من المعرفة فتقضى بهذا أن يحسب توجيه الكثرة، على أكثر ما يمكن كمن تصدق بحبه «بر» مثلا، تحسب له فى فضل الله تعالى: إنه لو بذرها فى أزكى أرض. مع عناية الريّ والتعهد. ثم حصدت.. وبذر حاصلها في أزكى أرض كذلك.. وهكذا إلى يوم القيامة.. جاءت تلك الحبة كأمثال الجبال الرواسى».

الهم بالسيئة:

وترك السيئة يعنى: ترك فعلها.. أو حتى التلفظ بها.. لوجه الله تعالى. لا لنحو حياء أو خوف من الناس.. أو عجز.. أو رياء.

وهنا سؤال: ما هو موقف الإسلام ممن عزم على المعصية.. ثم حدث طارئ قاهر حال بينه وبينها..

إن روح الإسلام قاضية بأن الثواب لمن ترك.. حياء من الله تعالى.. وخشية من عقابه.. ورجاء ثوابه.. وربما جاز لنا أن نقول:

لو تصورنا زميلين.. كل منهما يسكن بيتا.. وهما معا فى درجة التدين سواء.. لكن أحدهما.. ما قدر له أن يسكن بيتا إلا وفيه ما يعين على العصيان..

أما الآخر.. فقد تحقق فيه أمل أبيه الذى كان يدعو له دائما.. بالستر !!.

فلم يكن يسكن بيتا إلا وكل مافيه يحرّض على الفاحشة.. أليس ذلك دليلا على أن الثانى مشمول برحمته تعالى.. والتى أذهبت عنه رجس الشيطان.. وهو مؤهل أن يتم حياته كما بدأها طاهر الذيل.. جميل الذكر.

إن الحديث الشريف يقول: «**من صام رمضان إيمانا.. واحتسابا**» فلا فضل لصوم إلا إذا تغيا هذه الغاية.. أما هنا فالحديث يطلق التعبير قائلاً: «**من هم بسيئة فلم يعملها**» دون نص على الحياء.. أو الاحتساب..

ولا ندعى أن من تركها قهراً يزاحم من تركها لله.. فى مرتبته وإنما فقط نقول: إن خلو الساحة من المعصية.. شىء عظيم ثم هى فرصة تهزم فيها إرادة الشر لحظة.. وربما كانت من بعد سلوكا.

مراجعة الحساب:

والحديث الشريف فى بعض معانيه دعوة إلى مراجعة النفس.. التى يجب أن تصحو على فضل الله تعالى عليها.. ورحمته سبحانه بها.. ليكون القرار هو الفرار من المعاصى جملة.. ثم الركون إلى الله تعالى.. أملا فى جنته.. وفرارا من ناره.

ومن مظاهره هذه المراجعة أنه:

إذا تصورنا عاصيا.. يرمى حجرا فى داره بكل معصية ارتكبها.. إذن لامتلأ البيت بالحجارة فى أيام!.

وإذا كان العمر هو الشىء الذى إذا زاد.. نقص.. فإن ذلك يتقاضانا تبييد صحائف أعمالنا:

بالفرائض.. وهى رأس مالك.

وبالنوافل.. التى هى تمام ربحك.

ثم يتجنب المعاصى.. التى هى دليل الخسران.

ومن مظاهر الحساب:

تأمل آصار السيئة على الفرد.. ثم على المجتمع.. حتى إذا تصورنا حجم الخسارة.. بادرنا إلى التوبة دواء لأمراض النفوس..

أما فيما يتعلق بالفرد:

إن العبد إذا أذنب ذنبا. نكت فى قلبه نكتة سوداء ولا تزال تلك النكت حتى تحجب نوره. فيكون كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا..».

إنها نقطة النقط تقذف بها السفينة فوق سطح الماء.. ثم إذا بها تنتشر.. ويتسع مداهل.. لتصبح حاجزا من رؤية الماء.. ومافيه. فإذا صار هذا العصيان ظاهرة اجتماعية.. كانت الاثار مدمرة للأمة.

مدمرة.. صحتها.. واقتصادها.. ذاهبة بالأمن فيها.. جالبة للشقاق ومضاعفاته.. بحيث تصبح الديار بلاقع. يظل سوس المعصية ينخر فى عظامها.. فتتهاوى.. ولا تبقى لها ثاغية.. ولا راغية.

يقول ﷺ من حديث أبى هريرة وابن عمر رضى الله عنهما قال:

«أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: «**يامعشر المهاجرين: خمس خصال إذا ابتليتم بهن ـ وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة فى قوم. حتى يعلنوا بها.. إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم.**

ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة. وجور السلطان عليهم.

ولم يمنعوا زكاة أموالهم.. إلا مُنعوا القطر. ولولا البهائم لم يمطروا.

ولم ينقصوا عهد الله وعهد رسوله.. إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم.. فأخذوا بعض مافى أيديهم.

ومن لم تحكم أئمتهم بكتاب الله تعالى. ويتخبرا فيما أنزل الله إلا جعل بأسهم بينهم»[1].

أما بعد: فإن لنا أعداء يودون أن نكفر كما كفروا. . وأن ننحرف كما انحرفوا. .

ويفرض علينا الإيمان ألا نحقق أمانيهم. . فإذا تهاونا. . زلزلت أصول الحق. . وانتهك حماه. . ثم استبحيت الرذائل. . وعندئذ. . عندئذ: ويل للحق من الباطل. . وويل للمؤمنين . . من الكافرين؟.

أما بعد. . فقد قال تعالى: ﴿**لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت**﴾.

فقد عبر فى جانب الخير بالفعل كسب. . . مجرداً. . بلا زوائد.

وفى جانب الخير بالفعل اكتسب. . . مزيداً بالألف والتاء. .

ولعل[2] ذلك إشارة إلى ما تتميز به فطرة الخيز. . من صفاء ونقاء. . بقدر ما يكون فى فطرة الشر من شوائب. .

ولذلك. . فعمل الخير محسوب لك بمجرد أن تعزم عليه. . أو تباشره. . مهما كان حجمه كما وأن عمل الشر لا يحسب إلا إذا احتفل به وبوشر فعلا. .

●●●●●

(١) رواه ابن ماجه والحاكم وقال على شرط مسلم.

(٢) الفكرة للدكتور أحمد دقماق.

التحذير من الظلم

عن أبى ذر رضى الله عنه. عن النبى ﷺ. فيما يَرْوى عن ربه: «**ياعبادى: إنى حرمت الظلم على نفسى. وجعلته بينكم محرما.. فلا تظالموا**»[1].

تمهيد

فى طليعة الذين ظُلموا فاتُّهموا بالباطل، موسى عليه السلام فى مثل قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[2].

وكما قال علماؤنا، لقد طلب موسى عليه السلام من ربه تعالى أن يحميه ممَّن يتهمه بالباطل حتى لا يقال فيه ما ليس فيه.. فقال له ربه: إنى لم أجعل هذه لنفسى.

وإذن.. فهذا قدر الأنبياء.. ثم الأمثل فالأمثل: أن يُبتلوا بمن يتهمهم بالباطل.. ولكن العاقبة فى النهاية ذهاب الغشاوة.. ثم يحق الله الحق بكلماته.

ونَذْكر هنا أيوب عليه السلام: لقد عانى مرارة العلة ثلاثة عشر عاماً.. حتى نَفر منه كل الناس إلا صديقين.

أما أحدهما فظل على وفائه.. كزوجته التى وقفت إلى جانبه.. وأما الآخر فضاق به ذرعا قائلا: لولا أنه أذنب ذنبا.. لما حَلَّ به ذلك البلاء. ثم جاءت البراءة من السماء فى قوله تعالى:

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[3].

والحديث الشريف دعوة إلى تحاشى الظلم. لأنه كما تقول الروايات الأخرى أما فى الآخرة: « فإن الظلم ظلمات يوم القيامة».. ثم هو سبب فى الحرمان من الشفاعة. وأما

---

(١) رواه مسلم والترمذى وغيرهما. (٢) الأعراف: ١٢٧ـ ١٢٩. (٣) ص: ٤٤.

فى الدنيا . . فبسبب منه:

أ ـ يدعو المسلم فلا يستجاب له.

ب ـ وتستشفى الأمة الظالمة أو الساكتة على الظلم. فلا تُشفى.

جـ ـ وتستنصر فلا ينصرها الله.

ويعنى ذلك أن الظلم: يَدَع الديار بلا قع.

من دروس الدعوة

ومن دروس الدعوة هنا:

أولاً: أن الناهى عن الظلم سبحانه حرّم على نفسه الظلم تفضلا لقد حرّم الخالق سبحانه الظلم على نفسه. . ولو قد ظلم سبحانه فلا يسأل عما يفعل وإذن. . فأحرى بالمخلوق الضعيف أن يتخلق بما رضيه تعالى لنفسه. . فكتبه عليها. . فلا يظلم ربك أحدا. .

ثانياً: ثم إنه تعالى يناديهم بوصف العبودية المضافة إليه تعالى تشريفا لهم. . وتلطفا بهم فى نفس الوقت.

والتلطف هنا صورة من صور رحمته تعالى بعباده:

فدواعى الظلم كثيرة منها، القوة. والسلطان. والعصبية، وقد لا تحقق الشدة ثمراتها إزاء هذه الظروف التى تأخذ بخناق الإنسان ولا يستطيع التفلت منها. والتلطف موقف من مواقف الحوار. . لا المواجهة. . ربما يساعد على كشف الغشاوة. . والذهاب بالسكرة التى تُخدر الإحساس.

وثالثاً: من رحمة الحق سبحانه تبصيُر الإنسان بمخاطر الطريق. . وموانع الوصول. . ليتلافاها ابتداء وفى مقدمتها الظلم وما يترتب عليه من بوار.

ورابعاً: فإن النهى يتجه إلى المسلم حتى لا يقع منه الظلم. ابتداء فإذا وقع. . فإنه يتجه إلى الطرف الآخر. . الذى وقع عليه الظلم حتى لا يدفع الظلم بالظلم. . وذلك قوله: «**فلا تظالموا**». ولا تعاملوا الظالمين بالمثل. . حتى لا تتسع دائرة العدوان.

وإذ يتجه النهى للجميع . . فإنه يحمل المجتمع كله مسئولية الظلم الواقع وإلا فإن السكوت إغراء للظالم أن يتمادى . . لأنه لم يجد من يضرب على يديه . . بقدر ماهو خذلان للمظلوم . . يترتب عليه جزاءٌ من جنس العمل . . حين يتعرض الساكت لموقف من نفس النوع . . ثم لا يجد له عندئذ نصيرا .

وياليت قومى يعلمون : يعلمون أننا منهيّون عن ظُلم مَنْ لا يَدينُ بديننا فكيف يليق بنا نحن المسلمين أن يظلم بعضنا بعضا ؟ .

●●●●●

واقع الأمة

فى ضوء هذا الحديث

ويلاحظ أن القضية فى الحديث تتعلق بأمر شرعى.. وهو النهى عن التظالم بين البشر لا بأمر كونى .

وإذا كان الأمرس الكونى واقعا لا محالة فلا يتفلت من قبضته إنسان مثل قوله تعالى: ﴿**كونوا قردة خاسئين**﴾، فإن الأمر الشرعى متروك لاختيار الإنسان إن شاء فعل وإن شاء ترك.

فلما نهى سبحانه الناس عن التظالم.. التزم مَنِ التْزَم. وأبى من أبى.. ووقع الظلم فعلا.. فما هو الحل إذن؟.

لا مانع من الرد.. ردٌ اللطمة بمثلها.. لكن الصبر.. أولى.. وأولى من الصبر هو العفو.. إحسانا.. فالله تعالى يحب المحسنين.

وعلى هذا جَرَتْ سنة الله تعالى فى البشر، والتى تتجلى من خلال هذه النماذج التطبيقية.. الكاشفة عن هذه الحقائق..

١ ـ أن أوفى الناس حظا فى باب الاتهام الظالم: الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل..

٢ ـ هناك عقلاء من الناس.. لم يشغلوا أنفسهم بالرد على الظالم لكنهم فتَّشوا فى ماضيهم ليقفوا على سبب الظلم الواقع بهم .. ليكون الموقف لهم درسا وعبرة.

٣ ـ وفى النهاية تكون العاقبة للمظلوم.. الذى يؤيده الحق تعالى بنصر من عنده، وفى قصة يوسف عليه السلام شاهد على ذلك فقد حبسه إخوته فى الجب ثم اتهموه بالسرقة ونَعم «قد سرق.. ولكنه سرق الصنم الذى كان يعبده والد أمه فالموقف له.. لا عليه !.

يقول العلماء: وماذا فعل يوسف عليه السلام حتى يُفعل به هكذا؟

إنهم لم يقتلوه، وإذا أبقوا عليه حيا.. فإنهم بخلوا عليه بحقه فى الحركة.. حين وضعوه فى الجب.

والسبب هو: نجاحه وتميزه على إخوته.، والمفروض أنهم عشيرته وحماته.. ولكن الحسد سوَّل لهم أن يجعلوه طرفا فى قضية.. لم يكن طرفا فيها..

يبد أنها طبيعة البشر: فالنوازع البشرية موجودة حتى بين أبناء الأنبياء.. وتأمل إلى أى حد كان الحسد عميقا.. لأنهم كانوا يعرفون احتمال افتضاح أمرهم بالوحى، ولكنهم فعلوا فعلتهم مع العلم بأن أباهم لم يكن يكرههم.. وإنما فقط يحب يوسف أكثر.. كما يشير قوله تعالى:

﴿لَيُوسَفُ وأخوه أحب إلى أبينا منا﴾، وعلى فرض أنه كان يكرههم... فهل كان ذلك يستدعى النظر فى قتله؟[1].

وما أكثر ما يظلم الأقرباء من برز فيهم بموهبة من المواهب. وإن تعجب فعجب أنك تُعلنُ بموهبتك هذه عن تفوق قومك الذين خرجت من بينهم شاهدا لهم.. ولكنهم يستكثرون على أنفسهم أن يكون فيهم رجل فارد.. متميز.. وهى نزعة وبيلة تحدرت من الأسلاف إلى الأخلاف: الذين مَنّ الله تعالى عليهم بواحد منهم.. بشر مثلهم.. ومن دمهم ولحمهم.. ويتكلم لغتهم ومع ذلك قالوا مستنكرين:

﴿ أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [2].

إنها إذن عقدة الأجنبى التى تَحمِلُ ضحيَّتَها على رفض الخير يأتيك من أخيك.. ثم تَقبلَ عليه راضياً إذا جاءك حتى من عدوك.. البعيد!.

●●●●●

---

(١) الفكره للدكتور عبد الغزيز كامل.

(٢) القمر: ٢٤.

ومن النبيين إلى الصدِّيقين.. لتجد الظلم الفادح قَدَرَهُمْ فهذا سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه.

لقد أرسله عمر رضى الله عنه إلى أهل الكوفه.. ولم يكد يباشر سلطانة على تقوى من الله ورضوان حتى شكوه.. فعزله.

فأرسل إليهم الخليفة قائلا: لو أرسلت إليكم الليّن.. قلتم: ضعيف.. ولو أرسلت إليكم القوى.. قلتم: جائر. ثم استدعى منهم ناسا فقالوا سعد لا يحسن أن يصلى فسأله عمر قائلا: يا أبا إسحاق ماذا تقول؟ فقال: والله أصلى بهم صلاة رسول الله ﷺ. ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل قد اتهموه بأنه لا يقسم بينهم بالعدل !؟.

وهكذا يتعرض سعد رضى الله عنه.. الصحابى الجليل لهذه الهجمة الشرسة.. وهو الأوّاب.. المجاهد.. المقبول الدعاء.

ولم يملك عندئذ إلا أن دعا على من ظلمه، ثم أجيبت دعوته رضى الله عنه.. فكان الموقف تبصره وذكرى .

ومن ضحايا الظالمين: العالم: عبد الله بن عون رحمه الله.

لقد ضربه الوالى «بلال بن أبى بُردة بالسوط.. فقال له تلاميذه: فعل بلال كذا؟

فكان يقول لهم: إن الرجل يكون مظلوما. فلا يزال يقول حتى يصير ظالما وما أظن أن أحداً منكم أشدُّ على بلالٍ منى!.

وهو موقف.. صار مثلا: أوّلاً: فى عفة اللسان.. وهو ثانياً درس فى كف النفس عن مقابلة السيئة بالسيئة حتى لا تُستدعى الشدةُ بالشدة.. فإذا المظلوم وقد أخذ حسابه من غريمه ثم هو بالمبالغة فى ذمة يعطيه من حساب حسناته فيتبادل الموقع مع ظالمه الذى صار اليوم مظلوماً !.

ويبقى باب التوبة مفتوحا أمام الظالمين، والأمر على ما قال ابن الجوزى:

«عقارب المنايا تلسع: فاحذر. إنَّ جسم الأمل يمنع الإحساس، وماء الحياة فى إناء

العمر يرشح بالأنفاس.. واذْكر عند القدرة: عدلَ الله فيك.. وعند العقوبة: قدرة الله عليك، وإياك أن تشفى غيظك بسقم دينك»، ولا تمل من طرق الباب أبدا مع الطارقين. الضارعين القائلين:

ياكثير الصفح عمّن كثر الذنب لديه   جاءك المذنب يرجو العفو عن حُرم يديه

أنا ضيف وجزاء الضيف إحسانُ إليه

ومايزال الحديث موصولا عن قصص الظلم وما يترتب عليه من بوار للظالم.

وما يخبئه الغد للمظلوم من نصر مؤزر.. يؤكد حكمة الله تعالى.. الذى قد يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

ثم ليؤكد فى النهاية أهمية العودة إلى الله تعالى بالتْوبة النصوح سبيلا إلى مغفرته سبحانه وتعالى القائل:

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢].

وممن تعرضوا للظلم الفادح ابن سيرين. الذى لا يجود الزمان بمثله إلا يسيرا. لقد كان ذلك التاجر الأمين، كان فى دكانه زيت بأربعين ألفا. وكان هو كل رأس ماله، فوقع فأر فى هذا الزيت، وكان من الممكن أن ينتشل هذا الفأر.. ويستمر فى البيع.. كأن شيئا لم يكن لاسيما وليس هناك أمارة يراها الناس.. ولكن كيف يحدث هذا وضميره صاحٍ.. يقظ.. يراقب.. ويعاتب بل يعاقب!.

وبسلطان ضاغط من هذا الضمير أراق الزيت على الأرض ولو كان الزيت بأربعين مليونا لما وسعه إلا التخلصُ منه !.

ولقد تحمل ابن سيرين مضاعفات الموقف بشجاعة يُحسد عليها، فقد ركبته الديون.. بل ولاحقه الدائنون بكل سبيل.. وكانت نهايته أن أودع السجن ومع ظلمة السجن.. وقسوة السجّان.. وغدر الزمان.. ظل محتفظاً بشجاعته.. وأمانته.. فقد كان السجان يقول له:

اذهب إلى أهلك بالليل.. وتعال فى الصباح فيقول له: لا.. والله لا أعينك على خيانة السلطان؟

وهكذا، إذا كانت النفوس كبارا ـ تعبت فى مرادها الأجسام؟ ونتساءل:

أين زملاء ابن سيرين من التجار ليدافعوا عنه!، لقد جلسوا على كراسى المتفرجين.. بينما ألسنة المغرضين تتطاول على ابن سيرين قائلة:

هذا محمد بن سيرين يأكل أموال الناس بالباطل !!، ولو قد عرفوه.. ما اتهموه!.

ولكنها قصة الأطهار الأبرار.. يراهم الحاقدون.. فيدركون نَفَاسة ما يملكون من فضائل لا تطاوعهم أنفسهم على التخلق بها.. وبَدَل أن يقلدوهم يحاولون رميهم بأدوائهم ثم ينسلُّون.

المظلوم يفهم الدرس:

ولقد كان من رحمة الله تعالى بابن سيرين أن يُعينه على استخلاص العبرة من الموقف.. حتى لا يعود إلى مثل ما فعل أبدا.

قال رحمة الله معللا ماحدث له: لقد عيَّرت رجلا بالفقر.. ومنذ أربعين عاما فكان هذا جزائى، وهو واحد من مدرسة الأوابين المعترفين بما جنت أيديهم يوما، ومنهم ذلك الذى قال:

نظرت إلى امرأة لا تحل.. . فنظر إلى زوجتى من لا أريد. ومِنْهم ذلك الذى عيّر رجلا قد ذهبت بعض أسنانه فانتثرت أسْنانه.

ثم هذا الابن الذى تنكر للأبوة فوصل به العقوق إلى أن ضرب أباه.. ثم سحبه على الأرض إلى مكان معيّن ! ودارت الأيام.. ليضربه ابنه.. ثم يسحبه فى نفس الطريق إلى أن وصل به ابنه مجروراً.. إلى المكان المعهود فقال لابنه وهو يجره جراً:

حسبك... يابنىّ.. لقد سَحَبت أبى وهو جدُّك إلى هنا !!.

وإذ يفهم هؤلاء الدرس.. ثم يستأنفون حياة الأبرار. فقد بقى على الظالمين.. أن ينتظروا العقاب.. أو يتوبوا وبقى عليهم أيضاً أن يعلموه أن الله تعالى قد يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.. ثم يفتح للمظلوم أبواب رحمته.. ونصرته على أعدائه.

رُوى أن عابدا عاد إلى بيته بالليل.. ولما رأى العسَس «الشرطة» هرب منهم ..

حتى يُعفى نفسه من تطفلهم فلما تبعوه أمسكوا به لما لجأ إلى خرابة.. وقد كان فى الخرابة قتيل.. فاتهموه به.. فقال: اللهم إنك تعلم أنه لا شاهد لى إلا أنت !! وقد أمَرْتنا ألا نكتم الشهادة !.

فأسألك ذلك منك !!، وببركة موقفه.. عفا ولى الدم عن هذا القاتل المعترف !.

وهكذا.. لا يترك الحق تعالى عبده يبيع فيه الناس ويشترون.. بل ينصره فى النهاية نصراً مؤزرا.

ولقد كان السلف الصالح من فرط محبتهم للعدل وكراهتهم للظلم فى المكان المكين، لم يكونوا يظلمون.. وهذا حق: ولكنهم فوق هذا لا يَرُوق لهم عيشٌ حتى يصبح العدل شرعة الأمة ومنهاجها.

ومنهم الفضيل بن عياض الذى كان يقول:

«إنى لأستحى من الله أن أشبع حتى أرى العدل قد بُسِط. وأرى الحق قد قام».

وهكذا كانت الدنيا.. يوم كان الناس ناسا..

أما اليوم.. فقد صار الأمر على ما يقول ابن الجوزى [1]. رحمه الله كاشفا عن ظلم الإنسان.. حتى لنفسه.

قال: «رأيت عموم الخلائق يدفعون الزمان دفعا عجيبا، إن طال النهار.. فبالنوم، وهم فى أطراف النهار على دجلة أو فى الأسواق.

فشبهتهم بالمتحدثين فى سفينة. وهى تجرى بهم، وما عندهم خبر، ورأيت النادرين: قد فهموا معنى الوجود، فهم فى تعبئة الزاد والتأهب للرحيل.

إلا أنهم يتفاوتون.. وسبب تفاوتهم، قلة العلم. وكثرته].

ونحن مطالبون بمزيد من العلم.. وصولا إلى التخلق بقيمة العدل.. وبخاصة مع أنفسنا:

«فالله الله فى مواسم العمر.

---

(١) فيض الخاطر ١٦٦.

والبدار البدار. . قبل الفوات.

واستشهدوا بالعلم.

واستدلوا بالحكمة.

ونافسوا الزمان.

وناقشوا النفوس.

واستظهروا بالزاد. . . ليوم المعاد».

●●●●●

العمل

فى حياة المسلم

قال ﷺ: **«إن الله يحب المؤمن المحترف»**[1].

كان من سنته ﷺ أنه كان: يخصف نعله.. ويرتع ثوبه.. ويحلُب شاته.. جاعلاً فى العمل قيمة ينبغى أن يتنافس فيها المتنافسون.

لماذا؟

١ ـ لأن العمل صيانة للكرامة الإنسانية حتى لا يجرحها السؤال.

٢ ـ ثم إنه فرار من الترف المفسد لمذاهب الأمة.. الذاهب بطاقاتها فى مسارب الضياع.

٣ ـ ثم هو توفير للسلع المحلية. والصناعات الوطنية.. نطرد بها ما لا حاجة لنا به من منتجات غيرنا.

٤ ـ يُبقى للأمة ما يكفيها إذا ما تأزمت الظروف الدولية.. حتى لا تقع تحت رحمة مَنْ لا يرحمنا ممن لا يدينون دين الحق.

وإذن.. فالحديث الشريف دعوة للمسلم أن ينهض ليشتبك مع الواقع فى معركة مباركة. يأخذ فيها كل فرد موقعه اللائق واضعاً نفسه حيث يُجيد صنعة معينة لا تصلح إلا به.. وهذا معنى الاحتراف.. الذى لا يعنى مجرد العمل كيفما اتفق.. كما يحلو لشباب يعرضون أنفسهم للطالبين.. لعمل ما يحسنون ومالا يحسنون!.

وإنما هى الخبرة الإنسانية الموزعة: كل حسب ميوله. لخدمة مرافق الأمة فى كل جوانبها. يد تحمل الفأس تشق الأرض شقاً.. وعين ساهرة أمام الآلة الدوارة. وأنامل مشغولة بالدقيق الأصيل يغنيا الله به عن الدخيل.

لقد رأيت بعينى شباباً لا تنقصهم القوة.. كما لا ينقصهم الذكاء.

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير والبيهقى فى الترغيب برقم ٢٥٥.

غير أنهم يستنكفون عن الاحتراف.. وأخذ النفس بصنعة يُلبُّون بها حاجة من حاجات الأمة.. ويسدون ثغرة من ثغراتها وإنهم لحراص على التأسى بسنة رسول الله ﷺ فى أكله.. ومشيه.. وقيامه وقعوده.. وكان عليهم أن يعمقوا النظرة مع هذا إلى سنن أبْقَى وأعود على الأمة بالخير.. لتكون أقدر علي الفوز فى معركة لا ينجح فيها إلا العاملون. فإن فعلوا.. فازوا بمحبة الله عز وجل.. ومحبته تعالى تعنى: البركة فى أعمارهم.. وأهليهم.. وأموالهم.

وإن تعجب فعجب ذلك الطبيب الشاب. إنه حريص على أن يخطب الجمعة.. وفى الحى عشرات يكفونه ذلك العناء.. ليتفرغ هو لحرفته فى تخفيف آلام الناس.. وإنه لينفق الساعات كل أسبوع جريا وراء النصوص.. والمواقف فى حجرة ضيقة.. وبين دفتى كتاب.. بينما مكانه هناك فى جنبات الأرض الواسعة بحثا وتنقيبا عن كل مستحدث جديد فى دائرة تخصصه يضع حدا لمرض يمتص عافية الناس.. مجددا بذلك سنة أجداد من الأطباء المسلمين الذين فاقوا أمثالهم من الأطباء الأجانب.. بل كانوا أساتذة لهم.

يقول «كامبل» بشأن الجراحة: كانت الجراحة فى القرن الثالث فى أسبانيا، حين كانت فى ظل المسلمين تتمتع بسمعة أعظم من سمعتها فى باريس، ولندن أو أدنبره». ذلك أن ممارس مهنة الطب فى «سرقسطه» كانوا يُمنحون لقب «طبيب جراح».

وفى أوربا كان لقبهم «حلاق جراح». وظل هذا التقليد ساريا فى أسبانيا حتى القرن السادس عشر، وفى الجغرافيا.. أيضاً.

قال صاحب «قصة الحضارة». إن خرائط الإدريسى تعتبر القمة التى بلغها فن رسم الخرائط فى القرون الوسطى.. تلك الخرائط التى لم يكن لها نَدّ من حيث الضبط والدقة.. ومن حيث المجال.

ولقد تحايل الفكر الغْربى ليخفى هذه العبقرية.. وهذا الاحتراف.. فلنحترم التخصص.. ولا نكون أعوانا لغيرنا فى إخفاء معالم حضارتنا.. ثم فى الاستجابة لما يعلنون ويزينون من تفردهم بتخصصات معينة.. نحن أحق بها وأهلها وليحاول شبابنا أن يتفوقوا.. كلٌ فى مجال تخصصه.. فذلكم الرباط.. فذلكم الرباط.

المسلم بين عمله وأمله

«عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«لن ينجى أحدا منكم عمله».

قال رجل: ولا إياك يا رسول الله؟

قال: «**ولا إياى. إلا أن يتغمدنى الله منه برحمته. ولكن سددوا**»[1].

إذا كانت الجنة أمل كل مسلم، فلا يظن أحد أنه يستحقها بأعماله مهما كانت كبارا. والرسول ﷺ مشمول بهذه القاعدة:

فهو وأمته على رجاء رحمة الله تعالى، فبها وحدها يدخلون الجنة.

وما على المسلم إلا أن يطلب السداد، ويلتزم به، قاصدا بأعماله الحق والصواب، فإن وصل إلى الكمال فذلك فضل الله تعالى.. وإلا.. فليقترب من القمة على قدر استطاعته.. وهذه مسئوليته.

لكن الآيات القرآنية شاهدة بأن المسلم يدخل بعمله الجنة فى مثل قوله تعالى:

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [2].

وقوله عز وجل: **﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**[3].

ويقرر العلماء أنه لا تعارض، وما زال عمل المسلم قاصرا عن الوصول به إلى الجنة.. إلا أن تداركه رحمة من ربه.

ويتضح ذلك مما يلى:

إن عملك الذى قد يغرك مسبوق وملحوق بأمور لا وجود له إلا بها:

فالله تعالى هو الذى هداك إليه، ووفقك إلى لإخلاص فيه. ثم قبله تعالى منك

(١) مسلم. باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ج ١٧.

(٢) النحل: ٣٢.

(٣) الزخرف: ٧٢.

عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال رسول الله ﷺ:

«لن ينجى أحدا منكم عملُه. قالوا: ولا أنت يارسول الله؟ قال: ولا أنا.. إلا أن يتغمدنى الله برحمته: سددوا.. وقاربوا، واغدُوا ورحوا. وشىء من الدلجة، والقصدَ القصد.. تبلغوا»[1].

تمهيد:

بعد عمل شاق مرهق.. أدركه ﷺ النعاس، والذى استسلم له.. فاتكأ على حجر بشقه الأيسر. ورآه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما فتأثرا.. ثم قاما عند رأسه خشية أن يزعجه من يمر من الصحابة قريبا منه، وفجأة.. يثب.. ثم يمسك بالمسحاة منشدا:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجر. ثم قال لهما:

أفلا أفزعتمونى؟» «نبهتمونى كى أعمل»[2].

وعلى كثرة الدروس المستفادة من هذا الموقف المثير.. لكننا نركز على ما يتصل بموضوعا وهو أنه ﷺ مع منزلته من ربه. وتفانيه فى خدمة الدين والأمة، ومع يقنيه بمغفرة الله لما تقدم من ذنبه وما تأخر إلا أنه حريص على ألا يتميز عن أصحابه.. متحملا مسئولية إنجاز دوره فى حفر الخندق.. صادرا عن القاعدة المستنبطة من حديثنا وهى:

لن ينجى أحدا منكم عمله. ولا هو وإن كان رسول الله. من أجل ذلك فهو يعمل ويعمل.. ثم لا نجاة بعدُ إلا برحمة من الله تعالى؟[3].

من آثار رحمة الله

ليس بالعمل وحده.. تدخل الجنة. ذلك بأن دخولك الجنة ابتداء.. بفضل من الله ورحمة.

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن عبد الله بن عمرو.

(٢) رواه البخارى فتح البارى ج ١١/ ٢٩٤.

(٣) علقت على هذا الحديث هنا بعد أكثر من عشر سنوات من تعليقى السابق.. وتركت الأمر كما هو.. فلعل القارئ أن يكتشف فرق التناول.

أ ـ فهو الذى حماك من المعصية وأوضارها.

ب ـ ثم حبب إليك الطاعة.

جـ ـ فرزقك بالطاعة نعمة التوفيق إلى الجنة.

د ـ ثم أمدك بعونه.. فكان استمرارك على طريق الرشاد.

منازل الجنة :

وإذا تشير الآيات الكريمة إلى أن دخول الجنة بالعمل.. من مثل قوله تعالى: **﴿تلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون﴾**.

فربما جاز لنا أن نقول: إن الزحزحة عن النار.. من فضل الله تعالى. فلن ينجى أحد منكم عمله من النار.

كما أن دخول الجنة ابتداء من فضله سبحانه. أما منازل الجنة التى يتفاضل فيها الداخلون.. فمردها إلى العمل كما أشار علماؤنا.

من أسرار البيان النبوى:

لعلنا نتصور السيف فى غمده الذى يشتمله.. ويحيط به.. ويحفظه.. ثم نتصور مع ذلك قوله ﷺ «إلا أن يتغمدنى» لندرك أن الأخطار المحدقة بالإنسان.. من القوة والشموال، والترصد.. بحيث لا نجاة منها إلا برحمة سابغة.. تتغمد الإنسان.رحمة: تشمله.. تغمره.. تحيط به.. وبدون هذه الرحمة الإلهية السابغة فهو معرض للخطر إن الموقف لعصيب.. ويحتاج إلى النفير العام. فإذا كان الإنسان هو رسول الله ﷺ.. تبين لنا إلى أى حد نحن فى حاجة إلى رحمة الله.

●●●●●

وهنا سؤال يفرض نفسه وهو: كأن العمل إذن.. لا يفيد؟!!

ويجىء الجواب النبوى يحدد موقف الإنسان ودوره الذى يقف به فى مساقط رحمة الله تعالى. وهو المستفاد من قوله ﷺ:

أ ـ سددوا.. أى: انطلقوا فى مناكب الأرض من قاعدة الإخلاص، والمهم أن يكون سيركم فى اتجاه الجنة فعلا.

ب ـ وعليكم بالتقريب، وهو بذل الوسع.. وهنا تنتهى مهمتكم.

جـ ـ المشى أول النهار.. والطاقة وافرة، ثم أوّل النصف الثانى.. بعد الراحة، ثم شىء يسير من الليل.. ليأخذ السائر حظه من النوم.

د ـ على أن يكون ذلك كله قصداً.. عتدالا.

ويأخذ التوسط هنا أهميته من أمرين:

١ ـ التكرار.

٢ ـ ثم تقدير الفعل «الزموا» وما يشى به من الالتزام الصارم بذلك. قال ابن حزم:

معنى الأمر بالسداد والمقاربة:

أنه ﷺ بعث ميسِّرا مسهلا. فأمر أمته بأن يقتصدوا. لأن ذلك يقتضى الاستدامة عادة[1].

واقعية الإسلام:

وتبدو واقعية الإسلام ملزمة كل مسلم أن يكون على مستواها تقدير الظروف الآخرين.. وبخاصة: المذنبين.

وهكذا كان رسول الله ﷺ.

(١) فتح البارى ١١/ ٣٠٠.

وخذ مثلا موقفه من «عبد الله» الملقب بالحمار!.

لقد لقِّب الرجل بما يدل على أنه فى أدنى درجات السلم الإجتماعى، بل لا مكان له على أدنى درجة فيه.. من حيث لم يكن له جاه يردع الناس عند مناداته بهذا الذى صار له لقبا.

ومع هذا: فقد كان يحب رسول الله ﷺ.. لكن حبه للرسول.. لم يمنعه من المعصية.

كما أن المعصية ـ رغم تكررها ـ لم تذهب بحبه للرسول ﷺ:

وقد علمنا الرسول أن تقدر ظروف الرجل.

فلا ينبغى أن نلعنه، واجبنا أن نتأسى بالرسول والذى دعا له قائلاً: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه.

قال ذلك: رغم أنه أقام الحد عليه.

وتلك شارة الواقعية الاسلامية التى تعترف بطبيعة الإنسان التى جبلت على الخطأ. ثم تزامل المخطئ.. صاعدة به إلى أعلى..

إلا وإن الأعمال الضخام وإن أثقلت جبلا.. لا تساوى نعمة واحدة من نعم الله تعالى.. فكيف بأنعم.. إن تعدّوها لا تحصوها.

وهكذا كان الناس.. ثم خلف من بعدهم خلف، حفظوا المتون.. لكنهم أساءوا الظنون.. وما يترتب على ذلك من شئون.

قال الشعبى: تعايش الناس بالدين زمانا... ثم ذهب الدين.

ثم تعايشوا بالمروءة زمانا... ثم ذهبت المروءة.

وتعايشوا بالحياء زمانا... ثم ذهب الحياء.

وتعايشوا بالرغبة والرهبة زمانا... ثم ذهب ذلك.

وغداً.. سوف يتعايشون بالجهل زمانا طويلاً !!.

(١) فتح البارى ١١/ ٣٠٠.

وتفاديا لهذا المصير الرعيب.. لابد من رجعة إلى سنته ﷺ فى التيسير.. والتوسط والسماحة.

وتلك مواطن الأسوة فى سيرته ﷺ:

كتب الشيخ محمد الغزالى رحمه الله تعالى عن مولد النبى ﷺ فى كتابه «حصاد الغرور» يقول:

الحديث عن رسول الله حبيب إلى كل قلب، فإن صنائع معروفه طوقت أعناقنا، وثمرات جهاده الشاق هى التى تحيى ضمائرنا، وتمسك كياننا، وإذا كان المثل السائر يقول: «من علمنى حرفا صرت له عبدا» فكيف لمن هيأ لنا الرشد فى الدنيا والنجاة فى الآخرة.

إن دينه فى رقابنا ضخم، وجميله فى أفئدتنا مغروس.

ومع ذلك فقد كنت اقدم رجلا وأؤخر أخـرى عندما كنت ادعى إلى احتفال المولد الشريف لأتحدث عن رسول الله ﷺ.

كنت أشعر بأن هذا الاحتفال صلة مفتعلة بين المسلمين ونبيهم، وأن الخطب التى تلقى فيها دعاوى حب لا يساندها دليل ولا يؤيدها واقع.

كانت هناك مدائح للنبى منظومة ومنشورة، وشارات فرح بذكراه مطوية ومنشورة، ولكن لم يكن هناك ما يدل على صدق الاتباع، وحسن التاسى، بل لقد هرع إلى سرادقات الموالد بين المغرب والعشاء ناس لم يصلوا المغرب ولا العشاء.

إن الأمر لايعدو المشاركة فى تقليد مكرر مألوف.

وذكرت أبياتا للبوصيرى عن رسول الله ﷺ، فخيل إلى أن الرجل كان يعنى جماهيرنا عندما قال فى بردته. فإن فضل رسول الله ليس له: حد فيعرب عنه ناطق بفم.

وكيف يدرك فى الدنيا حقيقته: قوم نيام تسلوا عنه بالكلم.

ولقد كنت أوقن وأنا أنقل الخطوات هنا وهناك بأن كثيرا من المسلمين لا يعرفون حقيقة النبوة، ولا يفقهون معنى الرسالة، ولا يدركون ما يجب عليهم بإزائها. إن

العلاقة الوحيدة المقبولة بين المسلمين ونبيهم هى التأسى به والسير تحت لوائه، والتزام طريقه القويم وصراطه المستقيم، فمن فعل ذلك فهو أولى الناس به فى الدنيا والآخرة، وإن لم يحى لمولده ذكرى.

ومن شرد عن هذا الهدى، فقد انقطع بالرسول سببه، وإن أقام لمولده عشرات السرادقات.

رحم الله الشيخ محمد الغزالى

●●●●●

الأخلاق قبل الأطباق

قال ﷺ: «الدين النصيحة»[1].

ليس هناك أضر من صاحب يحسن القول. ولا يحسن العمل:

يبالغ فى تقديرك مبالغة تنسيك عيوبك. فإذا أنت سائر إلى الردى، على غير هدى. وإذ يبالغ حسادك فى ذمك.. فيوسعونك عتابا. أو يوجعونك عقابا.. فإن جريمتهم لا تقل خطرا عن جريمة مادحيك نفاقا وتزلفا.

وما أكثر الأصدقاء حين تعدهم فى: حفلات الميلاد.. والترقية.. والزواج.. يحملون اليك الهدايا.. والأطباق.. لكنهم بخلاء بالنصيحة يسدونها إليك: تبصيرا بعيب.. وتذكيرا بعثرات الطريق بين يديك. لتصبح النصيحة ضوءا كاشفا.. يجنبك المخاطر..

وصار الأمر على ما يقول الحسن البصرى رضى الله عنه: «تهاديتم الأطباق. ولم تتهادوا النصائح».

أجل: ما أكثر الذين يحرقون لك البخور.. فيحجبون فى ضبابه خطاياك.. لتكبر ويتسع مداها مع الأيام.

ويكبر معها احساسك بذاتك.. وبقدرتك الفذة.. واستعلائك على الأخطاء.. ثم يمضى بك قدرك معصوب العين... إلى قفص الاتهام.. ليضحك عليك اليوم.. من أضحكوك بالأمس!.

●●●●●

(١) رواه مسلم عن تميم الدارى فى رياض الصالحين رقم ١٨١.

فليكن لك من نفسك واعظ يحاسبك قبل أن تحاسب.. ويزن أعمالك قبل أن توزن عليك غدا:

فضيحة على صفحات الصحف .. تبقى ذلة تلحق الأولاد والأحفاد.

بيد أن فرط إحساس المرء بذاته وغفلته عن عيوبها قد لا يبصره بمواطن الخلل فيها..

وهنا لابد من الدقة فى اختيار الصديق الصدوق .. لتكون لك رفقة أخيار يحمونك من وعثاء الطريق.

على أن يكون لها من الشجاعة ومن الوفاء لك ما يحملهم على أن يشنوا الغارة عليك أحيانا تبصيرا لك وتذكيرا..

فإذا هم فى حياتك مصابيح هدى: فإن وصلت .. فبها .. ولو تعثرت .. بكوا من أجلك..

والذين يبكونك .. ثم يبكون عليك .. خير ألف مرة من هؤلاء الذين يضحكونك .. وأخيرًا يضحكون عليك!!

قال الشريف الرضى فى شرح حديث: (المؤمن مرآة أخيه):

والمراد: أن المؤمن الناصح لأخيه من يبصره مواقع رشده . ويطلعه على خفايا عيبه.

فيكون كالمرآة له: ينظر فيها محاسنه . فيستحسنها . ويزداد منها.

ومن مساوئه فيستقبحها. وينصرف عنها» وقد تكون المرآة صقلية فتظهر بوضوح .. وقد لا تكون كذلك!

●●●●●

ومن فقه عمر

لم يطمئن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه إلى نفسه . . لتنقده نقدا
ذاتيا . . ومع شفافية هذه النفس . . وشدة محاسبتها . . إلا أنه لم يكتف
بها . . . واصطفى لنفسه أخلص الناس:

كان موقفه عمليا حين طهر مجلسه من سدنة النفاق. واستبقى الأطهار الأصفياء عيونا له . . تراقبه . . وتحصى عليه.

قال يوما يخاطب معاونيه فيما يشبه حملة التطهير . . تطهير الحاشية من أعوان السوء:

من صحبنا فليصاحبنا بخمس . . وإلا . . فلا يقربنا: يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها . .

ويدلنا من الخير . . على ما لا نهتدى إليه . . ويعيننا على ذلك الخير جهده . .

ولا يغتابن أحدا. ولا يتكلم فيما لا يعنيه

ولقد ابتعد الشعراء والخطباء وبطانة السوء من ساحة الحكم.

وبقى عنده الزهاد والفقهاء . . مرايا صقيلة تعكس . . عمله . . وقوله . . وتنقل إليه بصدق نبض الأمة . . بل زيف أو تحريف . .

ولكنه عيّن له حاجبًا خاصا. مهمته الأساسية: مراقبة الخليفة نفسه . . فى كل ما يأتيه من أقوال وأفعال . .

ثم ليقدم إليه تقريرا يوميا بذلك . . ليستغفر الله من السيئة . . ويشكره تعالى على الطاعة!

قال يوما لأحد رجاله: (إن الولاة جعلوا العيون على العوام . .

وأنا أجعلك عينا على نفسى: فإن سمعت كلمة تربًا بها عنى . . أو فعالا لا تحبها فعظنى وانهى عنها).

فإن الفرصة مواتية اليوم ـ أن نحقق من التقوى أهم جوانبها:

بالنصيحة.. قبل المنيحة.. بالحرص على ما يكثر الثواب .. بدل التفنن فى شراء الثياب! بالكلمة المخلصة تمنع بها أخالك عن الردى .. وتفتح بها الطريق إلى الهدى.. تفتح بها أعينا عميا .. وآذانا صما .. لترى وتسمع .. وتحس .. ولتحقق

بهذا الوعى معنى التقوى..ولتكن النصيحة بشرطها: أن تكون نصيحة .. لا فضيحة !

وليكن الأمر على ما يقول حاتم الطائى:

إذا رأيت فى أخيك عيبا: فإن كتمته عنه .. فقد خنته.. وإن قلته لغيره .. فقد اغتبته.. وإن واجهته به .. فقد أو وحشته.. فلما تساءل جليسه: وكيف أصنع؟ قال: تكنى عنه .. وتجعله فى جملة الحديث.

وإنها لمفارقة عجيبة أن يصدرها هذا التوجيه الراشد من رجل كحاتم الطائى وشهرته

أنه: أكرم العرب.. وخيرُ من أكرم الضيف .. وأجزل العطاء..

وإنها لدلالة تؤكد: أن حاتما لم يكن قصاراه أن يقدم الأطباق .. وينحر الجزور إطعاما للطعام..

وإنما كانت له سجية أخرى تنبع مع أختها من تقديره لكرامة الإنسان:

هذا الإنسان الذى قد يحتاج إلى الأطباق تقدمها إليه إشباعا لمعدته..

لكنه قبل الأطباق محتاج إلى الأخلاق .. تهديها إليه نصيحة .. وكلمة طيبة يحقق بها وجوده كإنسان .. فهو بالنفس لا بالجسم إنسان!

بل لقد اتسعت قلوب عشاق المجد إلى سهام الحاقدين تصوب إليهم.. واستثمروها لصالحهم..

على عكس ما أراد اجسادهم..

وفى ذلك يقول أحدهم:

عـداى لهـــم فضل علـى ومنه

فلا أذهب الرحمن عنى الأعاديا

هموا بحثوا عن زلتى فأجتنبتها

وهـم نافسونى فاكتسبت المعاليا

●●●●●

أحق الناس بشفقتنا

روى أحمد رضى الله عنه[1].

«إن أفضل الصدقة على ذى الرحم الكاشح»[2].

ذهب المصور ليلتقط صورة للمسئول الكبير فى دولة أجنبية. .لكنه وجد وجه المسؤول مشوها فى ناحيته اليمنى.

فتردد: هل يصورة كما هو ـ بحيث يظهر عيبه. . أم يصوره مشوها فى ناحيتى وجهه . . فيكون الموقف أصعب. .

أم يرسمه خاليا من التشويه . .فيكون مزورا

وقرر الرجل فى النهاية أن يصوره من ناحيته الشمال

حتى لا يبدو الخلل بهذه الصورة الجانبية. .

وهكذا كان هذا الفنان يحمل التصور المادى . . الذى خلا من الإيمان. . فحرم الضياء الكاشف. .

ومن ثم . . لم يحل المشكلة . . ولكنه هرب منها. لكن الإسلام لا يهرب من المشكلة . . وإنما يواجهها فى محاولة للتصدى لها . . ثم القضاء عليها. . أو على الأقل: التخفيف من حدتها.

والمشكلة هنا . . ذلك القريب الذى يحمل نفس اللقب

ويساكنك فى نفس الشارع . . ثم يضمر لك بذرة العداء كقنبلة موقوتة يمكن أن تنفجر فى لحظة من زمان؟

الحل الإسلامى: بصفة عامة: فإن الإسلام لا يريد لعلاقات الناس أن تكون فقط عشبا أخضر بلا ظل . . ولا زهر . . ولا ثمر

(١) المسند: ٢٢٤٣٠.

(٢) الكاشح هو: العدو يضمر عداوته ويطوى عليها كشحه أى باطنه . . أو الكشح: الحصر والمعنى: يطوى عليها كشحه. ولا يألفك.

ولكنه يريدها كتلك الشجرة الطيبة: إنها ثابتة ... فهى دائمة.. غذاؤها الماء والتراب .. ولكن عطاءها هو: الزهر .. والتمر والظل .. والوقود الذى يحمينا من الحر. ومن البرد.

من أجل ذلك .. حرصت تعاليم الإسلام على تنمية الشعور بالانتماء..

فنحن نجوع بعض الوقت .. لنذكر الجائعين كل الوقت..

ورضى الله عن ذلك العابد الزاهد:

لقد علّق ثوبه على الجدار يوما .. فى يوم كان برده شديدا..

فلما رآه صديقه وهو يرتعش .. سأله عن سر ما فعل فقال:

لم أجد ما أساعد به الفقراء.. ففعلت هذا .. مشاركة لهم!!

من أجل ذلك كان الترهيب الرعيب من فساد ذات البين فى مثل قوله ﷺ: «**إياكم وسوء ذات البين فإنها الحالقة**»[1].

إن أحق الناس بتقديرنا هم أقرباؤنا .. وبخاصة ذلك الذى يضمر العداء لنا .. وإذا كان الشيطان أنشط ما يكون لإفساد ذات البين بعامة

فإنه أكثر نشاطا فى مجال الأقرباء!

من أجل ذلك يضع الحديث الشريف الدواء الناجح لصاحب وصفه الشاعر فقال:

وصاحب كالدمّل المعد ـ وضعته فى قطعة من جلدى وذلك بالصدقة بمعناها العام

فقير .. نتصدق عليه.. غنى .. تقدم له هدية.. محتاج .. تمشى فى حاجته

والإنسان أسير الإحسان..

ومن الحلول العملية هنا: إذا أحصيت عيوب قريبك الكاشح..

فحاول أن تحصى على نفسك ما ترتكب من مثلها..

---

(١) الترمذى رقم (٢٤٣٢).

ثم أسقطها من حسابه هو.. فإذا بقى من الطرح شىء من عيوبه .. فلا تزد عيوبك بالهجوم عليه.

ولكن: حاول أن تغطيه بإصلاح عيوبك أنت.. فإن فعلت .. استرحت .. وأرحت .. وبارك الله فيمن أراح .. فاستراح.

●●●●●

الغصن الأخضر

فى

الشجرة اليابسة

يقول ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبا .. وسيعود غريبا كما بدأ . فطوبى للغرباء**»[1]

وفى رواية: قيل ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: «**الذين يصلحون ما أفسد الناس بعدى من سنتى**».

وفى رواية كان جواب السؤال:

[قال: ناس صالحون: قليل. فى ناس كثير . من يعصيهم أكثرُ ممن يطيعهم]

وفى رواية:

وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية فى جحرها.

وفى رواية « إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها»

تمهيد:

لأن الحق باهظ التكاليف . . فهو فى حلوق الناس مرّ . .

والحق المر اتباعه قليل: وذلك بأن هوى الناس مع من يدللهم . . ويرخى لهم حبال الأمانى . . من أجل ذلك . . لا تجد أكثر الناس مؤمنين . .

وذلك ما تشير إليه الآيات الكريمة:

﴿ **لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ**﴾ [الزخرف: ٧٨].

﴿ **وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ**﴾ [المائدة: ١٠٣]

﴿**وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ**﴾ [الأعراف: ١٧]

---

(١) رواه مسلم كتاب الإيمان ج٢/ ١٧٥

﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا﴾ [الفرقان: ٥٠]

وفهم هذه الحقيقة يفرض على الدعاة إلى الحق أن يروضوا أنفسهم على مصابرة الكثرة الكاثرة. . وذلك قوله تعالى:

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

متى بدأت غربة الإسلام

قال الإمام مالك: بدأت فى المدينة . . وقد عانى الغربة فيها فعلا كما يشير قوله قوله تعالى **﴿وإذ زاغت الأبصار﴾** لكن ظاهر الحديث العموم ـ كما قرر علماؤنا ـ والمعنى: بدأ فى احاد الناس . . ثم انتشر. ثم يعود فى آحادهم أخيرا.

●●●●●

لماذا كان الإسلام غريبا

لقد جاء الإسلام بقيم وموازين جديدة. قلبت حساباتهم رأسا على عقب:

تصلح أمرهم. وتجمع شملهم .. فكان ذكرا لهم: نقلهم من الأثرة .. إلى الإيثار... ورفعهم من الثرى .. إلى الثرياء تراجعت روابط النسب .. فلا أنساب بينهم .. ولم تبق إلا العقيدة نسبا جامعا:

فالذى كان يخرج بسيفه مع أخيه .. لا يسأله فيم القتال .. يواجه بالإسلام .. فى بدر.. يواجه أخاه .. بلْ ويعود برأس أبيه إلى الرسول ﷺ.

لقد وعدهم الإسلام بجزاء كان غيبا .. والدنيا بين أيديهم وملء عيونهم مشاهدة..

فماذا حدث؟ عادوه .. وأنكروه .. بل وجحدوه ثم حوّلوا العداء إلى حركة عدوانية .. تفترى الكذب عليه .. ثم تشغب على زهله .. بل وتؤذيهم..

وإذن.. فقد صار الإسلام .. فى شخص أتباعه غريبا .. بمبادئه وموازينه. وصار المسلم به غريبا فى وطنه .. وصار أمره على ما يقول الشاعر:

وما أنا إلا المسك فى غير أرضكم

يضوع .. وأما عندكم : فمضيَّع

مقصود الحديث :

غاية المسلم هى: الجنة.. فكان لابد للمسلم أن يعرف أن الطريق إليها محفوف بالمكاره..

وإذا كان الإنسان كادحا إلى ربه كدحا .. فإن نصيب المسلم من هذا الكدح أوفى على قدر الأمانة التى تحمّل مسؤولياتها..

وفى غربته قد يرى نفسه بقيمة فى ذيل القافلة .. فليرتب أموره على هذا..وليجعل من الصبر .. والإصرار زادا على طريقه الطويل.

من دروس الحديث:

١ ـ من الأمانة فى منهج التربية الإسلامية ألا تهوّن الرحلة على السالكين. فتجعل لهم البحر سمنا وعسلا! ولو فعلت .. لسقط السالكون فى الطريق..

وقد تفادى الحديث الشريف هذه النهاية .. بإشارته إلى غربة الإسلام والمسلمين ليكون المسلم مستعدا لكل احتمال .. مجنِّدا للرحلة الشاقة كل إمكاناته .. والتى يواجه بها هؤلاء الذين يطاردون الإسلام.

٢ ـ لم يكد الحديث يشير إلى غربة الإسلام فى صدره .. حتى فاجأ السامع بعودته غريبا .. كما كان .. هكذا .. بلا فاصل زمنى .. مما يشير إلى استمرار هذه الغربة..

وكأنما عمر المسلم كله اغتراب .. ومعناة .. ومجاهدة .. ليواصل تسليح نفسه بمزيد من الصبر . يكابر به أعداءه المتربصين.

ولاحظ أنه يقول: سيعود غريبا .. لا سوف يعود..

ومن معانى السين:

أ ـ تحقق وقوع مدخولها

ب ـ ثم سرعة هذا الوقوع

٣ ـ لكنّ معنى الأمل فى نصر الله يظل يرف من حولنا:

ذلك بأنه سيعود: سيعود الإسلام كما هو.. بكل حقائقه .. وأحكامه.. بمعنى: أن محاولات الأعداء لنقضه على مدار التاريخ .. وفرضِ الغربة عليه .. وعلى أتباعه ستبوء بالفشل .. ولن ينقصوه شيئا..

وسيظل الإسلام محفوظا بحفظ الله تعالى إياه .. كما وعد ربنا تعالى بذلك .. وسوف يعود فى النهاية إلى حصنه الحصين .. بالمدينة.

٤ ـ والحديث الشريف بهذا المعنى عزاء وسلوى للمجاهدين.. ليعلموا أن جهادهم لن يذهب سوى .. وإنما لهم جزاؤهم: «فطوبى للغرباء»

وتعنى كلمة: طوبى: أنها صفة نفسية لهم: فهُم فى فرح وقرة عين .. وكرامة وخير دائم.. ثم مآلهم: الجنة. وهناك: فحسنى لهم..

ونعم مالهم.. لقد أصابوا خيرا .. فخير لهم وكرامة: فى الدنيا والاخرة

٥ - ومما يدعم الأمل فى الصدور أن للإسلام حصنه الحصين .. هناك فى طيبة الطيبه .. فى المدينة المنورة:

يأرز إليها.. يعود إليها آمنا فى سربة .. تماما .. كما تعود الحية إلى جحرها آمنة مطمئنة .. لا تطولها يد.

قال القاضى عياض: فى أول الإسلام. كان كل مخلص يهاجر إليها: مستوطنا أو متشوقا إلى الرسول ﷺ .. أو طلبا للعلم.. وهكذا .. تظل أبدا .. موئلا وملاذا.

●●●●●

يقول القرضاوى:

«طالما سمعت بعض المرشدين يجمعون أحاديث الفتن وأشراط الساعة وما شابهها فى نسق يوحى باليأس من أى عمل . ونفض اليد من كل محاولة للعلاج . أو الإصلاح. أو التصدى للفساد. وهذا ما رسخ فى أذهان كثير من العامة . بل بعض الخاصة . .فإن دعوتهم إلى عمل إيجابى تؤدى به الجماعة فرض الكفاية الواجب عليها. وتسقط به الإثم والحرج عنها . . شهروا فى وجهك هذه الأحاديث»[1].

المخلصون يتصدون للحملة الماكرة

وقد تصدى لهذه النزعة التى قد تكون من نضح الغفلة أو التغافل . . تصدى لها شيخنا الغزالى فقال تعقيبًا على ما أثير حول حديث . . «غربة الإسلام»

نفنّدا ما يزعمونه من دعوته إلى اليأس من الإصلاح.

قال رحمه الله:

[من الناحية التاريخية: يخالف الأحداث التى وقعت فى العصر الأموى نفسه:

فقد جاء الوليد بن عبد الملك. . فمدّ رقعة الإسلام مشرقا حتى احتوت أقطارا من الصين . . وغربا . . حتى شملت أسبانيا والبرتغال . وجنوب فرنسا.

ثم تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز فنسخ المظالم السابقة.

وأشاع الرخاء حتى عزّ على الأغنياء أن يجدوا الفقراء الذين يأخذون صدقاتهم!

ولقد أتى بعد أنس بن مالك رضى الله عنه عصر الفقهاء والمحدثين الذين أحيوا الثقافة الإسلامية وخدموا الإسلام أجل خدمة فكيف يقال إن الرسالة الإسلامية الخاتمة

(١) ثقافة الداعية ٥٤ ـ ٥٥ط وهبه ١٤١١هـ. عن كتاب «مجلة الوعى الإسلامى» ـ دراسة للدكتور يسرى خضر.

كانت تنحدر من سيئ إلى أسوأ؟!][1]

ثم يقول عن حديث غربة الإسلام؟ فى معرض رد الفهم الخاطئ له:

إيراد الحديث وفهمه على هذا النحو مرض شائع قديم: ولو سرت جرثومة هذا المرض إلى صلاح الدين .. ما فكر فى استنقاذ بيت المقدس.. ولو سرت .. إلى سيف الدين قطز ما نهض إلى دحر التتار فى عين جالوت..)

ثم قال: [إن هذا الحديث وأشباهه يشير: إلى الأزمات التى سوف يواجهها الحق فى مسيرته الطويلة:

فإن الباطل لن تلين قناته بسهولة .. بل ربما وصل فى جرأته على الإيمان .. أن يقتحم حدوده..

.. وعندئذ تنجلى الظلماء عن رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه يقاومون هذا الضلال بجلد.. لا يستوحشون من جو الفتنة الذى يعيشون فيه][2].

ويبقى فى الجعبة ما نقوله تدعيما لهذا الفهم الإيجابى للحديث الشريف:

فمن مجموع روايات الحديث تبرز ملامح هؤلاء الغرباء:

١ ـ فهم فئة قليلة. صالحة فى ذاتها.

٢ ـ ومع هذا فهم مصلحون لما أحدث غيرهم من بعد عن السنة المطهرة.

٣ ـ ولا تمضى حركتهم الإصلاحية سهلة .. لكنهم يخوضونها معركة مستميته فى مواجهة كثرة تتصدى لهم ولا تستجيب لدعوتهم.

٤ ـ ولكن الحق تعالى يتوج جهادهم المبرور .. بانتصارهم . على أعدائهم .. ويكون العيش الطيب جزاءهم المشكور.

وقد كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم هؤلاء الغرباء. الذين تحملوا مسئولية الدعوة فى ظروف قاسية أحسوا فيها بالغربة إحساسا فجر فيهم ينابيع الإيمان فكانوا روح الحياة.

(١ و ٢) عن المصدر السابق.

وكذلك يكون أناس مؤمنون فى آخر الزمان: إنهم قليلون.. صالحون.. مصلحون..يثبتون فى مواجهة الكثرة الباغية..

وإذن .. فإن الانطباع السليم إزاء هذا الحديث .. لا ينبغى أن يكون هو: اليأس والهروب من الحياة .. تحت ضغط الإحساس بغربة تهزم فى النفوس نوازع الطموح..

وإنما الانطباع الصحيح هو: التسلح بالإيمان .. وما يثمره

من أمل فى نصر الله والفتح .. على أعداء الحق مهما كانوا..

وأن قلة العدد لا تحمل على اليأس بقدر ما تحمل على التسلح بكل خلق نبيل ترتفع به أعلام الحق.

ويظل المسلم به: الغصن الأخضر فى الشجرة اليابسة.

أما بعد فسوف يعود الإسلام .. غريبا .. كما كان.. لكنه لن يعود وحده .. فمعه رجال صدقواما عاهدوا الله عليه

فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا.

●●●●●

غربة العلماء

ما أكثر ما يحس العلماء بالغربة فى أوطانهم . . فى الوقت الذى يسعدون فيه الحياة والأحياء بروائعهم . .

ومن هؤلاء الغرباء: القاضى عبد الوهاب البغدادى»

قالوا عنه: [إنه فقيه الناس. ولسان أصحاب القياس:

له شِعر: معانيه أجلى من الصبح. وألفاظه: أحلى من الظفر بالنُّجح.

ضاقت به بغداد: كعادة البلاد . . كل البلاد مع ذوى فضلها.

فقرر أن يودع أهلها. وماءها. وظلها. ثم قال للأوفياء ممن شيعوه:

لو وجدت بين ظهرا نيكم رغيفين كل غداة وعشية . . ما عدلت عن بلدكم.

وفى ذلك يقول:

سلام على بغداد فى كل موطن وحقٌ لها منى سلام مضاعف

فوالله ما فارقتها عن قلى لها وإنى بَشَطَّى جانبيها لعارف

ولكنها ضاقت علىّ بأسرها ولم تكن الأرزاق فيها تساعف

وكانت كخِلٍّ كنت أرجو دنوّه وأخلاقهُ تنأى به وتخالف

ومن هؤلاء الغرباء: ابن النحاس الحلبى . . القائل:

كم أداوى القلب . . . قلَّتْ حيلتى

كلما داويت جرحا سال جرح

ولكم أدعو ومالى سامـــــــع

فكأنِّى عندما أدعو . . أبـح!

حَسَّنوا القول وقالــــوا: «غربة»

إنما الغربة للأحرار ذبــح!!

الغرباء أنس الحياة

يقول ابن قيم الجوزية[1]:

(يوحشك الناس كلهم إلا الغرباء فى العالم:

فإياك أن تستوحش من الاغتراب والتفرد:

فإنه والله عين العزة . والصحبة مع الله ورسوله.

وروح الأنس به . والرضى به ربا . . وبمحمد ﷺ رسولا . . وبالإسلام دينا.

بل الصادق كلما وجد مسَّ الاغتراب . وذاق حلاوته وتنسم روحه. قال:

اللهم زدنى اغترابا . ووحشة من العالم وأنسًا بك

وكلما ذاق حلاوة هذا الاغتراب وهذا التفرد . . رأى الوحشة عَيْن الأنس بالناس . والذل عينَ العز بهم. والجهلَ عين الوقوف مع آرائهم . وزِبالة أذهانهم. والانقطاع عين التقيد برسومهم وأوضاعهم . فلم يؤثر بنصيبه من الله أحدا من الخلق . ولم يبع حظه من الله بموافقتهم فيما لا يجدى عليه إلا الحرمان.

فإذا انقطعت الأسباب. وحَقَّت الحقائق . وبُعثر ما فى القبور.

وحصِّل ما فى الصدور. وبُليت السرائر. ولم يَجِدْ من دون موالاة الحق من قوة ولا ناصر. . تبين له حينئذ مواقع الربح والخسران. وما الذى يخف أو يرجح به الميزان. والله المستعان وعليه التكلان].

●●●●●

(١) مدارج السالكين ج٢/ ١٨٠ ، ١٨١.

الحب فى الله أساس البناء

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ:

«أن رجلا زار أخا له فى قرية، فرصد الله تعالى على مدرجته ملكا. فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخا لى فى هذه القرية. قال: **هل لك عليه من نعمة تربها؟ قال: لا .. غيرا أننى أحببته فى الله. قال:**

فإنى رسول الله إليك: بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه»[١].

يهدف الإسلام إلى صياغة المسلم صياغة إنسانية رفيعة.. مبرأة من الحقد .. منقادة للخير . ومحبة الغير.

وإذ يقول ﷺ «لا يمنع فضل ماء - وهو الزائد - ليمنع به فضل الكلاء»[٢] حتى تزيد المساحة المزروعة.. فيشرب الحيوان.. والنبات فتزداد الثروة الحيوانية.. ويتنامى النتاج .. إذ يقول الرسول ذلك.. فإن الإسلام أحرص على أن تكون القلوب التى فى الصدور عيونا ثرية بالحب والمودة.. لتكون لهذه الخضرة وهذا النماء قيمة فى ظل من الإنسانية التى تجعل الحياة جنة وارفة الظلال.

والحديث الشريف دعوة إلى ذلك الحب على أوفى ما تكون الدعوة: فالحق جل وعلا يرسل من لدنه رسولا خاصا .. يجلس على جانب الطريق فى انتظار مؤمن نتيجة لزيارة أخيه فى الله ثم يكون ذلك الحوار الذى دار بين الملك .. وبين الرجل..

والذى أظهر كيف كانت الزيارة خالصة لوجه الله تعالى .. لا من أجل مصلحة خاصة يربّها أى يحفظها ويرعاها .. ويطالب بثمنها..

وكان الجزاء الأوفى : أن أرسل هذه الملك .. وملايين الملايين من غيره بعدد الزائرين فى الله .. تقديرا لعاطفة الحب الجياشة تربط بين مؤمنين..

يرسل تعالى الملك بهذه البشارة العظمى وهى: محبة الله لهذا الزائر المخلص..

وماذا تعنى محبة الله تعالى لعبده المؤمن:

(١) رواه مسلم وفى الترغيب رقم ٤٤٢٠

(٢) رواه البخارى

١ ـ إنها تعنى تيسير أمور حياته فى الدنيا . .

٢ ـ وأعظم بهذا التيسير حين تعلم أن الله تعالى إذا أحب عبدا كان :[سمعه الذى يسمع به . . وبصره الذى يبصر به . . ويده التى يبطش بها . .وقدمه التى يمشى عليها . .].

وبينما يكل الله تعالى الحاقدين إلى أنفسهم تتخبط بهم فى التيه يسعى نور المؤمنين بين أيديهم فى ظل من معيته ومحبته . فإذا خطاهم منسجمة مع حركة الكون.

فعاشوا حياتهم سالمين غانمين

إنك تسعد أخاك الذى تتلقاه فى منزلك بعد غياب طويل . فتدخل السرور على قلبه . . وهذا شىء فى الإسلام عظيم:

قال الحسن [إن من موجبات المغفرة إدخالك السرور على أخيك المسلم]

تبدؤه بالسلام . . تناديه بأحب الأسماء إليه . . تقضى حاجته . .

تستر عورته . . . تفرج كربه . . تظهر البشاشة له . . .

قال ﷺ: **«إن المسلمين إذا التقيا وتصافحا. وضحك كل منهما فى وجه صاحبه لا يفعلان ذلك إلا لله لم يتفرقا حتى يغفر لهما»** .

إن الأعمال الكبيرة لا تتم إلا فى ظل من الحب والود . .الحب الذى يضمن الثقة المتبادلة . والتعاون على البر . . وفى الأزمات الجائحة لا يجمع شمل الأمة إلا الحب النبيل . . بقدر ما يطهر القلوب من معوقات التقدم . . ومنها من سوء الظن . . والتنافس المسعور . . على حطام الدنيا . . ومع الحب فى الله سوف تتراجع هذه الخطايا . . ليحل محلها الوئام والسلام . .

●●●●●

الطريق إلى جنات عدن

يقول ﷺ: « **لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا. ولا تؤمنوا حتى تحابوا. ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم** ».

يتساءل بعض العلماء قائلين: لماذا النهى هنا .. مع أن المنهى عنه غيْر حاضر وهو: الجنة؟

والمقام للنفى وهو «لا تدخلوا» فيكون إخبارا.. وكان الجواب:

لقد اختار النهى ليكون المعنى: أمنعكم من دخول الجنة.. إلا بشرط الإيمان.. وأمنعكم من الإيمان .. إلا بشرط الحب..

فهم ممنوعون من الإيمان .. حتى لو اختاروه .. إلا بشرط الحب.. وبغير الحب.. لا تصلون إلى الإيمان عن طريق الطاعات الأخرى .. فإذا غاب الحب من حياتكم . فلا مستقبل لكم.

وإذا كان الحب حجر الزاوية فى بناء المجتمع.. فإن الحديث الشريف لا يكتفى بالدعوة إليه .. وإنما يرسم الطريق الباعث عليه.. ليكون شرعة ومنهاجا..

وفى طليعة ما ينمى عواطف الحب والمودة إفشاء السلام ..

وإفشاء السلام يعنى تنامى الحس الإنسانى الودود الذى يستشعر الأمن والسلام .. وينشر عبيرهما على ما حوله .. ومن حوله..

ومن النماذج التطبيقية الكاشفة عن ذلك ما روى: أن «يحيى بن خالد البرمكى» استدعى ابنه إبراهيم يوما. ودعا مؤدبه فسأله عن حاله. فقال: بلغ من الأدب كذا . وحفظ من العلوم كذا.. فقال يحيى: ما عن هذا سألتك. فقال المؤدب.

اتخذنا له من الدور كذا .. وصار رصيده فى البنك كذا!

فقال يحيى: ولا عن هذا سألتك. إنما سألتك عن سيادته وبُعْد همته .. وهل اتخذتم له فى أعناق الرجال مننا؟ باختصار: هل حببتموه إلى الناس؟

قال: لا . . قال: فبئس العشراء أنتم والأصحاب. هو والله أحوج إلى حب الناس منه إلى ما قلتم.

ثم أمر بحمل خمسمائة ألف درهم إليه. ففرقت على قوم لا يدرى من هم]

لقد أدان الوزير . . منهج المربى فى التربية . . فليست التربية حشو الأدمغة بالعلوم . .

وليست هى رصيدا فى البنك يستعلى به على الناس . . وإنما هى قلب شاعر حساس . . يحب الناس . .

وقد أخذ الوزير الموقف العملى فعلم ولده كيف يعيش فى وجدان الآخرين بهذا الوصل وهذا السماح.

ثم كانت منه المتابعة لحماية ولده من كل بادرة تنأى به عن قلوب الناس:

وإذا كان مهما أن تكون عالما أو غنيا فأهم منه أن تكون موفقا محبوبا. وقد رأى يحيى ولده يمشى مختالا فقال له:

يا بنى التواضع مع البخل والجهل . . . . خير من الكبر مع العلم والبذل . .

فيا لها من حسنة غطت على سيئتين كبيرتين . . ويا لها من سيئة غطت على حسنتين كبيرتين . .

فخذها يا بنى . . فقد أخذناها عن أشياخنا].

وإننا لنرى اليوم ونسمع عن خطأ ذلك المربى يتجدد:

قال لى بعض المشرفين على تربية النشء فى قرانا: كل شاب منا يستقل بخمسة من الصبيان يقرأ معهم فى كتاب . . ويعلمهم من الأحكام ما ينبغى . .

فلما ذكر اسم الكتاب الذى يقرأون . . قلت له ولكن مؤلفه من نفس القرية . . فلماذا لا تجتمعون أنتم وغلمانكم بين يديه لتتعلموا منها ما هو أدرى به . . وأهل مكة أدرى بشعابها؟

كيف تعلمونهم الكتاب ثم تحولون بينهم وبين مؤلفه؟

أنتم تخرقون هذه القلوب الفضة الحائرة بين أفكار كتاب تريدون حملهم عليها . .

وبين كاتب لا تريدون لهم أن يحبوه .. على كل حال: مهما كان سور الحديقة عاليا فلن يمنع الزهر خلفه من أن ينشر عطره.. ونذكِّر مرة أخرى بما قاله يحيى بن خالد .. خذها يا بنى.. فقد أخذناها عن أشياخنا.. فخذوا الحكمة من الأشياخ .. وعلموا القلوب كيف تحب فى الله أولا..

ألا وإن تربية الشعر ليست بأولى من تربية الشعور.

●●●●●

عمر الإنسان والمسؤولية الكبرى

قال ﷺ: « **لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه. وعن جسده فيما أبلاه. وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وعن علمه ماذا عمل فيه**»[1].

إذا كانت المذاهب الأرضية تدلل الإنسان بما تتملقه به من إشباع حاجاته.. إلى حد ينسى معه واجبه الحقيقى فى إعداد نفسه للدار الآخرة .. فإن الإسلام من قاعدة التقدير له والحرص عليه. يذكره دائما بمسئولياته الجسام .. ليظل أبدا على وعى كامل بموقف الحساب بين يدى ربه سبحانه .. ليعد الجواب الشافى عن هذا السؤال الذى ينبغى أن يلح عليه: ماذا أعددت لغدِى؟

وإذا بدا الإسلام هنا جادا ملزما .. فالعبرة بالخواتيم..

والقاعدة تقول: من أبكانى .. ثم بكى على .. خير ممن أضحكنى .. ثم ضحك علىّ!!

والحديث الشريف تذكير برأس مال الإنسان وضرورة صيانته حتى لا يضيع سدى.

إن رأس مالك هو: عمرك..

ثم طاقتك التى تجعل لهذا العمر قيمة.

وسوف تسأل عن هذه النعمة .. ماذا عملت فيها؟

إن واجبك أولا: أن تحافظ عليها.. وتنميها .. وتستثمرها .. لحسابك .. وحساب دينك وأمتك.

وثانيا: أن تقيدها بشكرها الذى يجعلها وسيلة نفع للأمة يكثر بها خيرها. ويزيد نتَاجُها..

إن لحظات عمرنا تتفلت بين أيدينا كما يتفلت الماء من فروج الأصابع.. فلا يمكن

---

(١) رواه البزار والطبرانى بإسناد صحيح واللفظ له وفى الترغيب برقم ٥٢٢٩.

إمهالها. ولا تطويعها لتتوقف .. فإذا أضفنا إلى ذلك أن وقت المسلم أقل من مطالبه.. وآماله العراض أوسع من عمره المحدود.. كان عليه أن يحشد كل قواه .. ويشحذ كل أسلحته ليخوض معركة الحياة محولا لحظات العمر إلى قيم ثابتة عصية على النسيان.. وإذا قتل الفارغون أوقاتهم فقتلوا فى نفس اللحظة أنفسهم فإن المسلم الحقيقى.. يستحضر دائماً ذلك السؤال عن تلك الأمانة فيجعل من عمره.. أعمارا.. حتى إذا مات كان له عمر ثان.. بما قدم من أعمال خالدة.. عريضة.. بقيت بعد رحيلة.. بقاء يجعله فى فم الحياة ذكرى تنفع المؤمنين.

وإذا كان الزمن وعاء احتوى الجسم.. والمال.. والعقل.. فسوف يسأل المرء كيف استغل هذه الطاقات.. فليأخذ كل إنسان حذره.

إن الذين يبددون أيامهم.. كالسفهاء الذين يبعثرون أموالهم.. والذين يسخرون طاقة الشباب فى لهو الحياة ولعبها.. أو يحصلون العلم رياء.. وسمعة.. كل أولئك موقوفون للحساب غدا. فلتنظر نفس ما قدمت لغد..

إن الحديث الشريف يهز النفوس.. ويهز كذلك الأمم ليصحو فيها الضمير.. وتصلب الإرادة.. قبل أن تكون قصعة يتداعى الأكلة عليها..

وما خدر إحساس الأمة إلا عندما غذّت جسومها بالنعيم.. فكان الكسل.. ثم الملل.. ثم استنوق الجمل.. فاستبدت بنا أمم كان خطوها وراء خطونا لو نمشى على مهل!.

وواجب المسلم أن يستلهم روح الحديث الوثابة.. التى تستنهض همته.. لينطلق.. محلقا.. فى السموات.. لا قاعدا مع الخوالف متحررا من الغفلة والكسل ذاكرا قول الشاعر.

تثاءب عمر وإذا تثاءب خالد بعدوى.. فما أعدتنى الثوباء!

●●●●●

قال نافع: « كان ابن عمر لا يأكل حتى يُوتى بمسكين يأكل معه. فأدخلتُ إليه رجلا يأكل معه. فأكل كثيرا. فقال يانافع: لا تدخل عليّ هذا، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**المسلم يأكل فى معى واحد والكافر أو المنافق يأكل فى سبعة أمعاء**»[1].

هذه صورة من صور التكافل الاجتماعى فى الإسلام كان ابن عمر رضى الله عنه بطلها.. حين رفض الانفراد بأطايب الطعام على مائدته.. وكانت متعته أن يشاركه طعامه مسكين.. مؤكدا للبخلاء أن وراء لذة الطعام لذة أكبر منها وهى: إشباع المسكين من جوع.. ثم تكريمه بدعوته.. ومجالسته.. ومؤانسته.

وأروع من ذلك: أن يجىء ذلك الخلق العظيم استجابة لرسول الله ﷺ.. الذى أمر.. فكان الالتزام.. والحديث فى جملته:

يعكس منهج الإسلام الذى يربى أتباعه على سنة القصد والاعتدال فى تناول حاجات الدنيا.

فما دام المسلم مشغولاً بمعالى الأمور.. آخذا فى اعتباره مصلحة الأمة جميعاً.. فهو إذن فى رباط دائم. فليس عنده وقت للتفنن فى ألوان الطعام.. لأن ذلك الوقت مدَّخر لما هو أنبل وأبقى.. من قيم الخير والجمال. ويكفيه ما يسد حاجته.. وكأنه من أجل ذلك يأكل فى بطن واحد أما الكافر.. أو المنافق. فقد غلبت عليه شهوته.. أوشقوته.. فتولد عنه شعور متجدد.. بحاجته إلى الطعام والشراب.. يتحول فى النهاية إلى شره.. فكأنما يأكل فى سبعة بطون.

ولقد فزع ابن عمر من هذا الذى استضافه.. فكان يرعى رعى الحيوان.. ولا يأكل كما يأكل الإنسان.

والمسلم ضنين أن يأكل طعامه إلا تقىّ.. فكان هذا التوجيه النبوى الكريم.. الذى يلفت الأنظار إلى ضرورة الارتفاع.. والانطلاق من هذا القفص الذهبى.. وهو المعدة ثم معايشة صور الجمال فى الكون.. وهى غذاء أى غذاء.

(١) جامع الأصول ج١/ ٥٤٦٥.

يقول الرومى: إن المعدة. وعبادة المادة هو الحجاب الصفيق بينك وبين ربك. فإذا رفعت هذا الستر. لم يكن بينك وبين ربك حجاب.

تخط حدود المعدة.. وتقدم إلى قلبك.. تأتك تحيات الرحمن من غير حجاب.

ومن هذه التحايا ما يصيبه تعالى فى قلبك من رضا وقناعة برغيف قسمته بالسوية بينك وبين مسكين يخرج من بيتك مجبور الخاطر.. جبرا لا يشترى بمال.

ولو أكلت الرغيف كله.. لبقيت حسرتك على روضة الجسم التى غابت عنها القناعة.. فصارت صريما هشيما..

أما روضة القلب.. فلا تزال بالعطاء.. والايثار مخضرة.. مثمرة].

ولنحتفظ لابن عمر بتقديرنا وإعزازنا.. ثم لنقلب الصفحة لترى الذين يأكلون فى سبعة بطون.. هل يشبعون؟.

عندما فَرَّ آخر أباطرة الفرس صحب معه ألف طاه.. وألف مغَنٍّ.. وألف مرب للصقور !!. ولكنه مع ذلك يبكى !! إذا كيف يعيش بهذا العدد القليل من الخدم؟!. وما كان زميله الرومى بأسعد حظا منه.

فقد كان المترفون من الرومان يأكلون.. ثم يتكلفون القىء.. مستأنفين الأكل من جديد !.

وأين هذه الحضارة العفنة من ذلك العربى البسيط الذى كان يأكل لقمته بحصاة من الملح.. ثم يغرس عصاه.. وعليها ثوبه.. فى مهب الرياح وعلى بسيط الصحراء.. وكأنه فى إيوان كسرى!.

وكانت لقمته: بركة.. سارت فى بدنه عافية.. دوّخ بها الجبارين. ومامنع ثوبُ عمر المرقع.. أنّ ينتصر. ولا منع ثوبُ «رستم» الحرير.. أن يكون مهزوما.

إن الفرق لواسع بين كافر. يعيش ليأكل ومسلم.. يأكل ليعيش.

ليعيش هو.. وأمته معه.

إن الجسم المترهل المغموس فى فنون الطعام.. لا يصبر على البلاء.. ثم تخلد به المعدة إلى الأرض مقصوص الجناح.. بليد الإحساس.. وكفى ببلادة الإحساس عقابا.. لا يُبقى للنعمة مذاقا.

الإسلام وتشجيع العاملين

قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرجل يعمل العمل. ويحمده الناس عليه. قال: «**تلك عاجل بشرى المؤمن**»[1].

قبل أن تشرق شمس الإسلام على العالم.. ربما كانت الكلمة اليسيرة.. أو الحركة العابرة سببا فى إراقة دماء تجرى أنهارا بينما الضمائر جامدة هامدة.. بل ربما كانت رؤية الدماء السائلة مأربا يريح بعض النفوس!.

فلما جاء الإسلام.. صحا الضمير من غفوته.. وبلغ من الحساسية، حدا يحمل المسلم على تحرى الحق.. والنفور من الباطل.. وها هو ذا المسلم يسأل الرسول عن أدق الخواطر.. ما حكمها فى ميزان الإسلام؟.

إن الذمة التى إتسعت بالأمس حتى لترمح فيها الخيل.. ترتع اليوم فرقا من مجرد خاطر يعبر آفاق النفس بعد إنجاز عمل صالح يستتبع حمد الناس وثناءهم على صاحبة. هل هناك من حرج؟.

ويوضح الرسول ﷺ أن ذلك: عاجل بشرى المؤمن.

إن الأعمال الصالحة كالمشاعر الصالحة لا تحتاج إلى إعلان من قبل صاحبها.. ولكن إذا أثنى الناس عليها إعجابا بها.. فلا بأس.. ولا حرج على قلب يهتز طربا من ثناء عاطر على عمل صالح.. يجىء ثوابا معجلا. يدعم به غريزة حب الذات فى كيانه دعما يحقق به وجودا يستمر فى عطائه مدفوعا بهذا الثناء.

وقد أقرّ القرآن الكريم هذه النزعة البشرية الراغبة فى الذكر الحسن بقوله سبحانه:

﴿واجعل لى لسان صدق فى الآخرين﴾

أما الذين يحاولون سرقة الأضواء.. أما هؤلاء الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا.. فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب.. العذاب الذى منه إحساسهم بالذنب عندما يطلبون أرباح صفقة وهمية.. برغبتهم فى ثناء على أعمال لم يؤدوها أصلا.

---

(١) مسلم كتاب البر والصلة.

إن المسلم السوى. . لَيَستْقبل حمد الناس الذى ساقه الله تعالى رزقا إليه. . ولم يطلبه بعمله ابتداء. . ثم إنه حقه الشرعى بعمله الدءوب المثمر.

ثم إن حمد الناس دليل على قبول العمل. . فألسنة الخلق. . لسان الحق. ويتحمل الجمهور مسئوليته فى ضرورة الثناء على العاملين فى كل موقع بدلالة الحديث.

لأن ذلك الثناء شهادة حق. . يجب أن تؤدى. . ثم هو من ناحية أخرى تشجيع للعاملين. . ترتفع به الروح المعنوية. . فيحب العامل المجد عمله. . حبا يولد الثقة بين طبقات المجتمع فيزيد نِتَاجُها. . بل ويزاحم النتاج الأمم الأخرى فى الأسواق العالمية.

وربما لا تتسع موارد الدولة مكافأة الممتازين فى كل موقع من مواقع النتاج. . وإذن. . ففى التنويه بأعمالهم تعويض لهم يحضهم على الأمل. . والعمل.

وتتحمل أجهزة الإعلام دورها المرموق فى تسليط الأضواء على صور النجاح. . ونماذج التفوق. . تشجيعا يحمل العاملين على مزيد من الجهد. . بقدر ما يُحْرج الخاملين لينشطوا. لعلهم أن يكونوا يوما فى دائرة الضوء.

وإذا كان التنديد بالنماذج الرديئة جزاءاً من خطة الإصلاح. . تحذيرا للمسلمين.

فإن من كمال هذه الخطة أن ننوه بالعاملين. . الآملين. . لا بمجرد الجائزة المالية. . فإنها وحدها لا تكفى.

بل بتقدير العوامل المؤثرة فى كيان الإنسان. . والتى تبعث من مراقدها بهذا التقدير. . فإذا هى طاقة دافعة. . نافعة.

●●●●●

حماية عرض المؤمن

عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: قالﷺ: **«من رد عن عرض أخيه. رد الله عن وجهه النار يوم القيامة»**[1].

من مقاصد الإسلام الجليلة: صيانة كرامة المسلم أن ينالها أحد بسوء.. والحديث الشريف دعوة لأن يجند المسلم نفسه ليكون حارسا علي عرض أخيه.. فيدافع عنه.. آخذا وضعه لنصرته.. مهما كلفته هذه النصرة من جهد أو مال. أو أذى.

إن التنافس فى مظاهر الحياة قد يورطنا فى أخطاء ما كان أغنانا عنها.. حين يتحول التنافس إلى صراع خفى.. نفر به من المعركة الشريفة.. على أرض مكشوفة.. إلى ما يشبه حفيف الأفاعى خلف الجدران! وخاصة بين المتقاربين فى السن.. والعاملين.. فى حقل واحد.. والراغبين في الفوز بجائزة ما. فإذا حالف التوفيق واحدا.. انبرى المهزوم يعلنها حربا شعواء.. على خصمه.. وفى الظلام.

وقد لا يُبرد ناره إلا أن يخوض فى عرضه الذى يعلم هو أنه كالبرد النازل من السماء.. طاهر.. وبرىء من كل نجس. فإذا وقع هذا المحذور.. فما هو واجب السامع؟.

إن الإسلام لا يطلب منك أن تقابل النار بالنار.. ولا الإعصار بالإعصار.

وبدل هجومك المضاد على من شتم أخاك الغائب.. حاول أن تبرئ أخاك الغائب مما نسب إليه. وغير مسموح لك باسم الإسلام أن تنال من عرض الشاتم.. فليس من الحكمة أن تدافع عن عرض.. على أنقاض عرض أخر ولو كان عرض الشاتم نفسه..! فحاول أن تخفف من حدة التوتر.. والإبقاء على الجو نظيفا.. كما أراده الإسلام.

فإذا كنت تملك البرهان على كذب المغتاب.. فهات برهانك.. وإذا كنت تعلم من سيرة المشتوم ما يبرئ ساحته.. فهات ما عندك نجم الفلك!. فإن لم تستطع.. فلا أقل فى قفل باب السباب.. وهو أضعف الإيمان..

---

(١) رواه الترمذى وقال: حديث حسن، عن رياض الصالحين/ ٤١١.

نعم.. هذا أضعف الإيمان.. لأن قوما يسمعون الهجوم على غائبين أبرياء.. لا يملكون الدفاع عن أنفسهم.. وتراهم يسكنون.. وقد يكون الحديث الخائن.. بعض مآربهم !!. وإن جريمة السكوت المتعمد لتسُلكُ مركبها مع الذين يباشرون الهجوم. ذلك بأن فتح الطريق للكلمة الخبيثة لتخط مجراها يعنى: شيوع الكراهية.. ثم ضياع الثقة، فانحلال الروابط الاجتماعية. . وفرارا من ذلك كله.

يحرم الإسلام الغيبة.. التي هي مرعى اللئام !. ويلزم المسلم بالتخلى عُن هذه الرذيلة.. فى ذات نفسه.. ثم التصدى لها لو جاءت من الغير.

فإذا تم ذلك: تكُونُ قد صُنْت عرض أخيك من الدنس.. وحميت الشاتم نفسه من النار.. وحينئذ فسوف تنال جزاءك من جنس عملك.

إن الله تعالى سيكرمك.. حين يحمى وجهك من النار.. يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا.

هذا الوجه الذى عبس فى وجه القذيفة الطائشة.. وتصدى لها بالكلمة الهادية. وياليت قومى يعلمون:

وأقصد أولئك الذين يغمض أحدهم عينيه فى جلسة.. بينما مقارض الألسنة تنهش إخوة لهم أبرياء. يسمعون.. ثم يتجاهلون.. لأنهم يستمتعون بما يسمعون وعندما يخافون انكشاف اللعبة يقول قائلهم: استغفر الله ... يا شيخ !!.

وطبعا.. إنه استغفار.. يحتاج إلى استغفار !!.

وبعد: فإن المستمع أحد المغتابين: فلا تغتب أحدا.. ولا تسمح لأحد عندك أن يغتاب أحدا: لماذا؟ لمصلحتك أنت. فإن كان من أغتبته صديقا.. فكيف تغتاب من تحبه؟

وإذا كان عدوا.. فكيف تُهدى إليه بالْغيبة حسناتك؟ فلا تغتب أحدا.. وخاصة العلماء.. فإن لحومهم كما قيل مسمومة ؟!!.

●●●●●

من علامات الإيمان

يقول ﷺ: **« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»**[1].

لا يذوق طعم العيش.. هذا الذى ينطوى على نفسه.. معزولا عن بنى وطنه.. فما عاش.. من عاش لنفسه فقط.

قد يكون للمعزول نظر.. ولكنه قصير. وقد يحقق متاعا.. ولكنه الخيْر الجزئى..

أما هؤلاء الذين نما فى قلوبهم الحس الإجتماعى فأحبوا لإخوانهم مثل ما أحبوا لأنفسهم.. فكانوا للفقير غوثا.. وللضعيف سندا.. وللعاجز عونا.. وللغارم نجدة.. فأولئك هم المؤمنون حقا.. ذلك بأنهم يملكون مكونات الشخصية الإسلامية من العدل.. والفضل.. والتعاون.

وهى قيم أعظم.. ونَفْعها أعم وأشمل.. حتى لأولئك السلبيين الظانين هروبهم من الحياة مغنما.

لكن الأفق العالى.. هو الذى جاء الحديث ليرقى بالمسلم إليه فلا يكمل إيمان المؤمن حتى يجد مساعدته فى أن يحب.. كما يجدها إذا كان محبوبا.

ولن يكون للحب معنى حتى يستحضر فى وعية معنى الأخوة الجامع على البر.. المانع من الغدر..

ولن يتم للمؤمن ذلك حتى يحَب لأخيه.. نفس ما يحبه لنفسه.. لا شيئا مثله أو مقارباً له، نفس الجائزة التى تتطلع إليها.. ونفس الكرسى الذىْ تتربع عليه.. وذات المركز الذى تطمع فيه.. فإن فعلت صَحَّت منك دعوى الإيمان.

ولقد كانت سيرة السلف الصالح ترجمة حية لهذه المودة وهذا الإيثار.

لقد طُلب من الفلاح الغائب فى أحشاء القرية لا يعرفه أحد.. طلب منه أن يقتنى قطا لتخرج الفئران من بيته.. فأبى لأنها ستذهب إلى دار جاره.

---

(١) متفق عليه.

ونقرأ من قصة داود الطائى ماروى:

أن خادمته قالت له يوما: ألا تأكل إداما؟. قال لها نعم.

فلما صنعته، وقدمته إليه سألها عن أيتام جارهم.. ما حالهم؟

فقالت: كما هم.. فقال لها: إذهبى به إليهم!.

فلما استنكرت الجارية قال لها: ما آكله يذهب للأرض.. للفرش.. وما يأكله الأيتام يذهب للعرش!!.

لقد صار «داود» حجة على الذين يحصرون المتعة فى السلطة.. أو الثروة.. أو العبقرية.. مؤكدا لهم أنها دائما.. مع الزهد واليقين.

ويبقى بعد ذلك من أبعاد الحب الإنسانى أن تحب الذين يسعون على طريق الخيْر معك.

تحب لهم التوفيق إلى مثل العمل الصالح الذى هداك الله تعالى إليه.. بعيدا عن أنانية بغيضة تحبط مسعاك.. مهما حاز رضاك..

وتذكر هنا قصة المرشح الذى قدم لدائرته الانتخابية أعمالا كبيرة.

لكنه مع ذلك سقط فى الانتخابات سقوطا لم يكن متوقعا.

ولما شوهد الرجل لحظة إعلان النتيجة سعيدا.. على غير العادة قال للمتعجبين من سعادته.

أنا سعيد بالعشرة الذين نجحوا فمن حسن حظ الدائرة أن كان فيها عشرة كلهم أفضل منى!!.

●●●●●

إطعام الطعام
وكرامة الإنسان

قال عمر لصهيب ـ رضى الله عنهما :ـ فيك سرف فى الطعام!.

فقال: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خياركم من أطعم الطعام**»[1].

حقا إننا نعيش عصر المتناقضات:

فبينما يسقط أربعة عشر مليونا من أطفال العالم موتى كل عام.. من الجوع.. تترامى إلينا أنباء المترفين الذين يتزاحمون بالمناكب من أجل الفوز بثوب بلغ ثمنه سبعة ملايين من الجنيهات؟!.

وندرك على الفور صدق القاعدة القائة:

ما كان إسراف.. إلا ومعه حق مضيع!.

ولو أخذت هذه الملايين وأمثالها الطريق إلى بطون الجائعين.. لما كان هناك محروم.. ولا جائع.. ولما كانت هناك ضغينة على مال يَدُلُّ مصبه العابث.. على منبعه الآسن!.

من أجل ذلك.. يضع الحديث الشريف المطعمين الطعام.. على رأس قائمة الأخيار.

وإن لهذه الصدارة ما يسوغها:

فهم لا يرسلون الخادم إلى الفقير ببعض المال الذى لا يترجم المشاعر الحقيقية للمعطى.. ولا يمنح الفقير إحساسا بالكرامة.

وإنما يستضيفونه.. ليجلس معهم حول المائدة كواحد من أفراد الأسرة.. يأكل مما يأكلون.. فيحس معهم بآدميته.

هم يطعمون الطعام.. أعنى الطعام.. الكامل.. الذى: يمنح الطاقة.

---

(١) رواه ابن حبان ـ كتاب الثواب، عن الترغيب ج/ ٢/ ٤٦.

ويستوفى العناصر اللازمة لصحة الجسم.. على ما يقول ﷺ: **«من موجبات المغفرة: إطعام المسلم السغبان»**[1].

والسغبان هو: الجائع.. المحتاج إلى الطاقة.. والمتعب.. المحتاج إلى الصحة، أى أن إطعام الطعام ليس حركة مسرحية من أجل حب الظهور الذى يقصم الظهور.

ولكنه مشاركة وجدانية يسرى بها تيار الحياة فى الجسوم الهامدة فإذا الطاقات المعطلة.. عمل.. وبناء.. ونتاج.

وإذا الأيدى المعروقة حركة مباركة.. تطرد الحقد من النفوس.. ليصبح الواجدون والفاقدون على قلب رجل واحد.

بالإضافة إلى استحقاق الجنة التى لايدخلها إلا الراحمون.. ولا يحظى بنعيمها إلا المطعمون الطعام علي حبه مسكينا... ويتميا.. وأسيرا.

ومن هؤلاءك «مظفر الدين خان».

لقد بنى أربعة ملاجئ... لمن؟.

للمرضى من المقعدين.. وأصحاب الأمراض المستعصية.. وللعميان أيضاً.. مثبتا بذلك حسن نيته فى تجارته... ولم تنته مهمته عند هذا الحد.

ذلك بأنه لا يستهدف مجرد الإطعام .. سدا للجوعة، وإنما يستهدف حماية الكرامة الإنسانية.. فكان أن بنى لكل مسكين نزله الخاص به..

ثم يزورهم كل اثنين.. وخميس.

وكان يدخل علي كل واحد.. نزله الخاص به.. وعلي انفراد.. ويسأله بنفسه عن حاجته التى لا يبوح بها بحضور الآخرين.، حاجته التى لا تقتصر على الطعام.. بل تتطلع أيضا إلى الاحترام !.

وهذا ما حققه الرجل الإنسان .. بحس تصرفه!.

هذا التصرف الذى أطعم به من جوع.. وآمن به من خوف.

فحصل الفقير على عناصر وجوده.. وكرامته معا.. وفى ذلك فليتنافس المتنافسون.

---

(١) المرجع والموضع السابق.

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلا قال للنبى ﷺ: أوصنى. [1] قال:

«لا تغضب». فردَّد مرارا. قال **«لا تغضب»**. رواه البخارى.

وفى رواية للترمذى:

قال: يارسول الله: دلّنى على عمل يدخلنى الجنة. ولا تكثر علىّ.

قال: **« لا تغضب»**.

وفى رواية ففكرت فيما قال ﷺ: فإذا الغضب يجمع الشر كله.

تمهيد :

أرأيت إلى البقلة الغضة يرعاها الفلاح. يسقيها.. يحوطها.. يحميها من الآفات؟.

إنه يفعل ذلك.. حتى لا تعْبث بها شاة.. أو طفل صغير.. وهكذا قلب الإنسان.

إنه ضعيف كهذه البقلة.. وقبل أن يعصف به الغضب فى لحظة من زمان.. فإنه يعلمنا كيف نرعاه.. ليكون من بعد السيد المطاع.. تأتمر الجوارح بأمره.

أصناف الغاضبين :

جاء عنه ﷺ تقسيم الغاضبين ثلاثة أقسام:

فعن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ:

«ألا إن بنى آدم خلقوا على طبقات. ألا وإن منهم البطىء الغضب.. السريع الفىء، ومنهم سريع الغضب.. سريع الفىء. ألا وإن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم. أما رأيتم إلى حمرة عينيه.. وانتفاخ أو داجه، فمن أحس بشىء من ذلك فليلصق بالأرض..» الحديث.

---

(١) البخارى كتاب الأدب.

أقسام الغضب:

إذا تنوعت ردود الفعل عند المثيرات بقدر تفاوت البشر. فإن الغضب نفسه ألوان:

١ ـ الغضب الأحمر:

وهو غضب القوى على الضعيف.. وفيه يحمر الوجه.. والعين.. وتنتفخ الأوداج.. وكلها آثار الإحساس بالقدرة على الانتقام ورد الصاع صاعين.

٢ ـ الغضب الأصفر:

وهو غضب الأضعف من الأقوى.. وفيه ينقبض القلب.. فينحسر الدم إلى الداخل.. فيبدو الوجه أصفر.

٣ ـ الغضب الأبيض:

وهو ما كان لله تعالى.. انتصارا لحق من حقوقه يهان..

آثار الغضب:

ومهما يكن من أمر فإن الغضب ظاهرة يختل بها المزاج.. فتسوء الأعمال والأقوال.. والتصورات.

ومن هنا كان من الحكمة ألا يقضى القاضى وهو غضبان.. لأن حكمة حال غضبه يعنى أمرين:

أ ـ لن يتصور القضية كما هى. ب ـ وسوف يفسد حكمه فيها.

ويكفى من آثار الغضب قوله ﷺ: «**فإن كثرة من فى القبور من الغضب**»[(١)].

ومن آثاره الصحية.. ما قرره الطب الحديث من مضاعفات الغضب الإصابة بمجموعة من الأمراض فى مقدمتها. النزلات المعوية. والسكر، وفقد البصر أحيانا.. وآلام الأسنان.. والكبد.

مغزى النهى عن الغضب:

فى مغزى النهى عن الغضب نقول: إنه ﷺ لا ينهى عن الغضب كظاهرة بشرية..

---

(١) رواه أحمد وأبو داود.

وإنما يعنى: تجنب مثيرات الغضب. .حتى لا يحدث. . .فإذا حدث. . فلا ترتب عليه آثاره. . أما الإقلاع عن الغضب نفسه. . واقتلاع جذوره من النفس فذلك مالا يدخل فى طاقة إنسان. .

بدليل أن الرسول ﷺ لم يستثن نفسه من هذه الظاهرة. وذلك قوله:

«إنما أنا بشر: أرضى كما ترضون. وأغضب كما يغضب البشر».

[ظاهرة الغضب بين الوقاية والعلاج]

يأخذ علاج الغضب صورا شتى. . تتلخص فيما يلى:

أما قبل وقوعه.. وقاية منه:

١ ـ فقد تضافرت الأحاديث الشريفة على التنويه بجزاء من عفا.

قال ﷺ: «**من كظم غيظا وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الأشهاد حتى يخيره من أى الحور شاء**»[1].

وهو مشتق من الآية القرآنية: ﴿ **وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾[2].

ويعنى ذلك اعتصام المظلوم بإيمانه ليمكنه من السيطرة على أعصابه قبل أن تنفلت. . وذلك ما يشير إليه قوله ﷺ: «**ليس القوى بالصرعة. وإنما القوى من يملك نفسه عند الغضب**».

من التطبيقات العملية :

كان لمعاوية رضى الله عنه حكمته فى كف نفسه عن الغضب فى قوله: علام أغضب؟!.

أعلى أضعف منى. . أم على هو أقوى منى؟!!

ومعنى ذلك كله: لا داعى للغضب فى الحالين. . أى فى كل حالة.

لأنك أمام خصمك الضعيف فى حماية إحساسك المريح بأنك أقوى منه. . قادر على رد الصاع صاعين. . وهذا يكفى.

---

(١) رواه أحمد وأبو داود.

(٢) آل عمران: ١٣٤.

ولم الغضب المدمر.. وأنت قادر على أخذ حقك منه بهدوء.. ولا ثورة..

وهذا الموقف منسجم مع منهج معاوية رضى الله عنه فى حياته والذى يتلخص فى أنه:

لا يستعمل السيف.. حيث تكفى العصا. ولا يستعمل العصا.. حيث تكفى الكلمة... أما من كان أقوى منه.

فإنه لا مسوغ للغضب... لأنه يضيف إلى عدوان الأقوى عليه. عدوانه هو على نفسه بإلزامها محاولة للرد فاشلة سوف تضاعف من آلامه.

قال رضى الله عنه: قال معاوية: « لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى، ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى، ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت قيل: « وكيف ذاك؟ قال كنت إذا مدوها خليتها وإن خلوها مددتها» ونحو هذا قول الشعبى فيه: « كان معاوية كالجمل الصلب الحاذق بالمشى وهو الذى لا يضع يديه إلا حيث يبصر، وقول عمر فيه: احذروا آدم قريش وابن كريمها، من لا ينام إلا على الرضا ويضحك فى الغضب ويأخذ ما فوقه من تحته»، وأغلظ له رجل فحلم عنه فقيل له: اتحلم عن هذا؟ فقال: «إنى لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا».

علاج الغضب:

يتم التخلص من سطوة الغضب عبر مراحل:

١ ـ السكوت.. بمعنى الكف عن الإسترسال فى الكلام الساخن.. لأن مواصلة الهجوم على المغضوب منه تزكية لجمرة الغضب التى تستمر متوهجة كلما هبت عليها ريح ساخنة من ثوراتنا الغاضبة.

وفى الحديث: «علموا. ويسروا. ..... ثلاث مرات.

وفى رواية: « **وإذا غضبت فاسكت. وإذا غضبت فاسكت. وإذا غضبت فاسكت**».

وفى الأدب المفرد: مرتين[١].

(١) الأدب المفرد برقم ٣٥٧٩. ص ٣٧٨.

وفى تكرار الأمر بالسكوت دليل على صعوبة المهمة.. التى لا تتم بمجرد السكوت ليصبح كل شىء على ما يرام..

بل لابد من المحاولة: مرة بعد مرة.. ليكون اتئادا لا طفرة..

٢ ـ بعد السكوت.. لابد من البديل.

وإلا فإن مجرد السكوت ربما لا يكفى.. ومن ثم لا يكف الغاضب عن العودة.. والبديل الذى يملأ الفراغ هو ما أشار إليه الحديث الشريف:

جاء فى الصحيح: «أن رجلين استبّا عند النبى ﷺ.. وأحدهما يسب صاحبه مغضبا. قد احمر وجهه. فقال النبى ﷺ: «**إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد. لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**».

فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول النبى ﷺ؟!. قال: لست بمجنون!.

من معانى هذا الموقف:

لقد كان هذا الرجل من الغضب فى عنفوانه... فهو يسب صاحبه..

ثم هو محمر الوجه مما يشير إلى أنه الجانب الأقوى القادر على الانتقام.. ورغم أنه فى مجلس رسول الله ﷺ وما يفرضه ذلك من أدب.. إلا أن الرجل واصل الهجوم. فلما ذكّره الصحابة بما يجب أن يقوله لتهدأ العاصفة.. ظل على ضلاله وإنفعاله..

وكان من الحكمة ألا يواجه الإعصار بالإعصار.. من أجل ذلك سكت ﷺ.. ولم يرد أن يزداد الطين بلّة !!.

لقد كانت هناك زوبعة فى قلب الرجل.. لم تمكنه من استيعاب حكمة الرسول حتى قال منفعلا: لست بمجنون!.

ومن ثم.. كان من الحكمة الاعراض عن الرجل حتى يفرغ شحنة الغضب.

ولكن.. يبقى دواء الرسول سارى المفعول.. قادرا على امتصاص موجات الغضب.. لمن أراد أن يذكّر.

٣ - وتغيير وضع الجسم مانع من الاسترسال فى الغضب . .

ذلك بأن وضع الغاضب المتحفز . . يشجعه على التمادى فى الهجوم . . فإذا تغير وضع الجسم انكسرت حدة التوتر . . فإذا كان واقفا فليجلس . . وإذا كان قاعدا فليضطجع .

٤ - ثم يجىء الوضوء . . لأن الغضب جمرة . . وإنما تطفأ الجمرة بالماء .

فإذا بلغ الغضب عنفوانه . . كان الأمر على ماتقول بعض الروايات «فليغتسل» .

وذلك حين لا يكفى الوضوء لإنقاذ الموقف .

عود على بدء

ونعود إلى حديث أبى هريرة . . والرجل الذى رغب فى وصية موجزة من الرسول ﷺ . . فتطالعنا من الموقف معان جديرة بالتسجيل :

١ - إن غاية الرجل هى الجنة . . التى يريد شد رحاله إليها . . وكان طبيعيا أن يبحث عن وسيلة الوصول إليها . . لأنه لن يصل إليها إلا الراكبون نجائب الأعمال .

٢ - وكان طبيعيا أيضا أن يقصد الرسول ﷺ بالذات . . فهو وحده القادر على أن يحدد له معالم الطريق . . وتكاليف الرحلة البعيده .

٣ - ويشترط الرجل أن تكون الوصية موجزة .

وإذا كان هذا الشرط من ناحية . . مُحرجا . . لأن كلامه ﷺ : كان فصلا . . جزلا . . مركزا . . وما كان له أن يقدم هذا الشرط بين يدى رسول الله ﷺ بالذات[1] .

إلا أنه من ناحية أخرى شاهد على جدِّية الرجل فى الطلب . . وأنه راغب فى الجنة مشوق إلى نعيمها . . لكنه وبنفس القدر راغب فى عمل جاد يكون ركوبه إليها . .

---

(١) وصف الجاحظ كلام رسول الله ﷺ فقال : هو الكلام الذى قل عدد حروفه . وكثر عدد معانيه وجل عن الصيغة ونزه عن التكلف، لا يحتج إلا بالصدق . ولا يستعين بالخلابة . «بالكلمات البراقة» . ولا يستعمل المواربة . ولا يهمز ولايلمز . ولا يبطئ ولا يعجل لم يقم له خصم . ولا يفحمه خطيب . ولم يسمع الناس بكلام أعم نفعا . ولا أجمل مذهبا . ولا أحسن موقعا . ولا أسهل مخرجا . ولا أفصح عن معناه ولا أبين عن فحواه إلا كلام الله» .

ولفرط اهتمامه بذلك.. لا يريد مزيدا من الكلام.. وإنما هو فقط يريد ما يحقق أمله من العمل الطائر به إلى هناك.. فى جنات عدن. ولا ننسى أن الرجل عربى.. يدرك بحسه البصير أن طول الكلام يبرد الحماس إلى عمل الخير.. ومن ثم إن الإنجاز تحقيقا للأمل.. والنفس متجمسة.. والرغبة جامحة!.

٤ ـ ولم يغضب ﷺ من الرجل.. لأنه علم من عمق إخلاصه ما يجعله أهلا للتسامح.

وثانيا: لأن غضبه ﷺ.. قد يفوت على الرجل فرصة استيعاب الدرس.. تحت وطأة الإحساس بخيبة الأمل.. ولكنه ﷺ ـ وطبق خطته المحكمة ـ يترك الرجل للزمن.. لتجاربه اليومية.. والتى ستكشف له عن صدق النصيحة.. وهذا هو الذى حدث بالفعل.. عندما تبين لهذا الرجل أنه لم يكن موفقا حين استقل النصيحة طالبا المزيد. لأن التجربة الشخصية المأخوذة فى حسابه ﷺ أكدت له كما صرّح هو أخيرا بذلك.. بينت له أن الشر كل الشر.. من الغضب.

أجل.. لقد كان الرجل على بحكم إسلامه ألا يقدِّم بين يدى رسول الله ولكنه بحكم تجرده لغايته.. وهمته المعلقة بالثريا.. ثم بحكم عروبته المفطورة على حب الايجاز المنسجم مع طبيعته..

وكان من حسن حظه أن كانت قضيته مع الرائد الذى لا يكذب أهله.. ولا يعنّف أهله.. إنه لم يجعل وصاته كلاما منظوما أو منغوما.. وإنما كانت له نظرته المستقبلية التى أخذت فى اعتبارها إحالة السائل إلى تجربته ليكتشف بنفسه صدق وصيته.

وكثير من الدعاة يعالجون المواقف فى حدودها الجغرافية فينظرون بأعين رءوسهم..

لكنه ﷺ يستوعب المواقف بحدودها النفسية.. تاركا للمدعو أن يأخذ قراره من واقع ما شاهده ليكون دليلا آخر يضاف إلى ما قرره الداعى الأول:

فإن فضل رسول الله ليس له   حد.. فيعرب عنه ناطق بفم
وكيف يدرك فى الدنيا حقيقته   قوم نيام تسلوا عنه بالحلُم

ويبقى الغضب أثقل حملا :

سئل ابن عباس رضى الله عنهما. . عن الغضب والحزن. . أيهما أشد؟ فقال: مخرجهما واحد. . واللفظ مختلف. فمن نازع من يقوى عليه. . أظهره غضبا. . ومن نازع من لا يقوى عليه. . كتمه حزنا.

ومن هنا أخذ المتنبى قوله: وحزن كل أخى حزن. . أخو الغضب. . ومع هذا. . يبقى الغضب هو الأثقل حملا. . والأجدر بالعلاج. . وهو ما أشار إليه الحكيم.

وقد سئل: أى الأحمال أثقل: فقال: الغضب.

●●●●●

الصبر هذا الضياء الكاشف

عن أبى هريرة رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: « **ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب**» متفق عليه.

والصرعة هو: محترف المصارعة والمعنى الإجمالى للحديث: أن قوة الأعصاب التى يملك بها الإنسان نفسه ساعة الغضب. أكبر وأشد من قوة المصارع الذى يغلب بها خصمه عند المباراة.

«فإذا كانت القوة التى تصرع بها الخصم تقدر بواحد مثلا.. فإن القوة التى تحتاجها للتغلب على غضبك وإطفاء ناره فى صدرك تقدر بمائة».

ومعنى ذلك إن الغضب جمرة متقدة ولا يزال الشيطان ينفخ فيها حتى يُخرج الغاضب عن حد الإعتدال فيتحول إلى سلاح من أسلحة الشيطان ينفذ مهمته فى الإفساد.. وخلخلة الصف. فإذا استعاذ المسلم بالله منه.. وفقه الله تعالى إلى استنفار كل قواه.. فاستجمع أطراف شجاعته فملك زمام الموقف وأعفى نفسه من التورط فى الرد العنيف.. وما يترتب عليه من آثار.. وذلك هو الصبر الجميل.

ومن هنا قال ﷺ: «**الصبر ضياء**».

نعم.. إن الصبر ضياء يكشف للمسلم جوانب الموقف.. ليرى ويسمع فى هدوء ورويَّة.. يستحق بهما أن يتبوأ مكانه اللائق فى المجتمع..

ولكن.. كيف يكون الصبر ضياء.. ثم ماهى ثمراته فى واقع حياة المسلم؟.

إن المسلم إذا ضبط نوازعه.. وامتلك زمام نفسه النزاعة إلى رد العدوان بمثله أو أكبر منه. وإذا تفرد بالسيطرة على شهواته.. قويت إرادته فكان القرار قراره..

ومعنى ذلك: انسحاب كل عوامل التضليل.. والظلام من بين يديه ومن خلفه.. فتفتحت بصيرته.. وصفت روحه. واستيقظت فى داخله دواعى المعرفة والبحث.. فازداد علما وحكمة.. وصار شوقه إلى المعرفة دافعا له إلى الاستزادة منها.. بعد أن لم تتأثر مداركه بضغوط الموقف.

وإذا ما تكررت فى حياته اليومية صور الحياة بما فيها من سهل وصعب.. وحلو ومر.. فواجهها بما تتطلبه من صبر على السراء والضراء.. ازدادت إرادته قوة.. فصار صالحا لخوص الغمرات.. وصار الانتصار على الشدائد كأنه شىء يألفه.. وكان الانكسار أمامها قدره الذى يتقبله راضيا.. وإذا اجتمع للإنسان بالصبر: الرغبة فى العلم.. والتزود من المعرفة.

ثم القوة المقتحمة والإرادة الماضية فقد استجمع عناصر الرجولة.. وصار مسلما كامل الإيمان بقوته العلمية وقوته العملية.

وبهذه القوة العلمية سوف يفهم البلاء على أنه امتحان يسفر فى النهاية ـ بالصبر ـ عن فوائد جمة:

فـ « **فمن يرد الله به خيرا يُصَب منه**» رواه البخارى.

وما نقص منه إلا ليعوضه خيرا منه.

فـ «**ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولاهم ولا حَزَن ولا أذى ولا غم. حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه**». متفق عليه.

●●●●●

سلبيات يجب أن تزول

قال ﷺ: «إن الله كره لكم ثلاثا: قيل. وقال. وكثرة السؤال، وإضاعة المال».

إذا كان الإنسان عقلا كاشفا لما أودع الله فى الأنفس والآفاق من سنن تهديه إلى التى هى أقوم.

وإذا كان قلبا حساساً شاعراً يمنح مقررات العقل أشواقه لتصبح أملا محببا إلى نفسه.. لتنشط الإرادة فى تنفيذ ما اصطلح عليه العقل والقلب معا.

إذا كان الإنسان كذلك.. فهو منهى عن كل ما يعطل وظيفة العقل.. ويطمس أنوار القلب.. ويرخى حبال الارادة.. من أحاديث اللهو الصارف عن الحق.. وكثرة السؤال من غير داع.. ترفا عقليا لا جدوى منه.. وإضاعة المال فيما لا يفيد.. واضعا إرادته تحت رحمة عدوّه الذى يستغل حاجته.. فيفرض عليه بالقهر ما يناهض الإيمان.

قرأت نبأ ثلاثة إخوة من دول غربية: ذهبوا إلى صحراء فى دولة عربية. ثم نصبوا خيامهم إلى جانب آلاف السيارات المهملة. والتى تخلى عنها أصحابها. وفيها رمق من حياة. لقد استقدموا لها قطع الغيار. ثم خرجت من أيديهم كسالف العهد. تسر الناظرين.. وتغرى المشترين.

وهكذا استطاع الأجانب استغلال نقاط الضعف فى حياتنا.. ومنها إضاعة المال.. فى غياب روح المخاطرة وتراجع الحرص الدءوب على ثروة يمكن باللمسة اليسيرة أن تكون سندا لنا.. بدل أن نسلمها بمحض اختيارنا إلى الآخرين.

هذا عن إضاعة المال فماذا عن القيل والقال. وكثرة السؤال.

إن نفسك التى بين جنبيك إن لم تشغلها بالحق.. شغلتك بالباطل.. فإذا أرخيت لها الحبل.. وآثرت مجالس الفارغين من سمار الليالى استدرجتك من حيث لا تحتسب.. ثم ورطتك فى أحاديث محسوبة عليك.. ومردودة عليك نقمة.: تستحقها دَيْناً واجب القضاء.

---

(١) رواه البخارى ومسلم وابن حبان وفى الترغيب برقم ٤٢٣٤.

ولماذا التستر خلف الجدران مع خلان السوء الباحثين عن أخبار غيرهم يجترونها.. مؤثرنين أكل لحوم إخوانهم موتى.. على الكلم الطيب يرفع الله به أعمالهم ودرجاتهم؟.

إن الحياة من حولنا حافلة بصور النجاح تغرى بالتنافس فيها والسبق إليها. .لكن بعض الفارغين العاجزين يلاحقونها بالهمز واللمز.. بغيا وحسدا. وبدل أن يتخذوا منها مُثلا تحتذى.. إذا هم يختارون الأسهل. الأوفق بطبائعهم الملتوية.. فى محاولات يائسة تلتمس للأبرياء العيب.. ولم يكفهم أنهم قعدوا مع الخوالف. .حتى هبوا يعرقلون بالنجوى مسار العاملين.

ويساويهم فى العصيان أولئك الذين يستخدمون اللسان فى السؤال عما يجوز وما لا يجوز. بغير ضرورة ملجئة.. اللهم إلا الترف العقلى الباحث عن الغرائب والعجائب انبهاراً بها وترويجا لها.. على حد يصيب ملكة العمل بالعطب أو الضمور.

وهكذا يعطلون اللسان وهو آلة النطق والبيان عن أداء دوره الحقيقى فى تبصير الناس بالحق.. ليكون أداة للجدل الفارغ حول قضايا ثانوية لا حاجة للناس إليها.

وليت المسلم يمسك عن الكلام حين يحس شهوة إليه.. عائذا بصمت لا يندم عليه. ولن يصعد إلى هذا المرتقى الصعب إلا إذا أحس أن كلامه من عمله.. وحينئذ فسوف يوفر على نفسه هموم الخوض مع الخائضين فيما لا ينفع فى الدنيا.. ولا ينسجم مع حقائق الدين.

إن اللسان إذ يملك عبقرية البناء.. وعبقرية الهدم يفرض عليك وزن كل كلمة منه حذر عواقبها الوخيمة.

والذين يهرفون بكل ما يعرفون.. يحصدون الندم فى النهاية على كلام. كان قبل النطق ملكالهم..

النطق ملكالهم. ثم إذا به من بعد حجة عليهم

إن الدرهم كالكلمة: كلاهما نعمة منه تعالى ينبغى أن تصان.. وصيانتها فى حسن استخدامها فيما خلقت له.

والذين يكفرون بهذه النعمة.. نعمة المال. يعرضون أنفسهم لسخط الحق سبحانه وتعالى.

هؤلاء الذين يبددون المال على موائد الترف بدل أن يكون سندا للحق.. وتثبيتاً لقواعده.

ألا وإن المال وإن جمعته بعرق جبينك.. فإن لله فيه حقا .. وللجماعة أيضاً حقا.

●●●●●

« حماية المسلم من نفسه »

روى البخارى بسنده عن سالم بن عبد الله رضى الله عنه قال:

« سمعت أبا هريرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: كل أمتى معافى إلا المجاهرين. . وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل عملا. ثم يصبح وقد ستره الله فيقول: يافلان عملت البارحة كذا. وكذا. وقد بات يستره ربه. ويصبح يكشف ستر الله عنه» كتاب الأدب.

تمهيد :

يقولون: « إن الفضلاء قليلا ما يدخلون التاريخ:

بمعنى أنهم يعيشون فى الأغلب الأعم حياة فاضلة هادئة. . ملتزمين فيها بالقيم الدينية والأخلاقية. . ومن ثم. . فلا يشعر بوجودهم أحد إنهم لا يرتكبون من الرذائل ما تدور به الألسنة. . وتتناقله الأجيال.

وفى نفس الوقت. . قد يدخل «الأرذلون» التاريخ من أوسع أبوابه ويتحدث عنهم الناس بما فعلوا وما ارتكبوا من أخطاء. . وخطايا. . » وخذ دليلا على ذلك.

هذا الرجل المهم. . فى دولة أجنبية. . والذى يرقدا ليوم تحت الثرى. . وكيف وصى قبيل موتة أن تُضم ابنته غير الشرعية إلى أسرته الأصلية. . مع إخوتها الشرعية.

وإلى أى حد سعدت الأسرة القديمة. . بل وسعد معها المجتمع بهذا الذى يفضح نفسه. . وبنفسه. . بعد أن ستره الله تعالى؟!.

مقصود الحديث :

ومقصود الحديث هو: حماية المسلم من نفسه. نفسه الأمارة التى ورطته فى المعصية يوما. . ثم ها هى ذى تمضى به فى شوط العصيان إلى منتهاه. . حين تعريه بإعلانها. . ليضيف إلى العصيان معنى الوقاحة الواصلة به إلى عذاب نفسىٍّ. . وما عذب هذا المجاهرَ أحدا. . ولكن عذبه الحق الذى تنكر له . . .نشاز. . . . فى لحنٍ متناسق.

وتخيل ذلك المجاهر.. ذلك النشاز فى اللحن المتناسق.. كيف صار الخطاؤون جميعا مهيأون لعفو الله.. ومغفرته.. إلا هو بالذات.. ودونهم جميعا.. ولاحظ أن الاستثناء فى الحديث الشريف منقطع. فى رواية الرفع «إلا المجاهرون» أى أن كل الناس مغفو عنهم.. إلا هذا المجاهر.. المعزول عن مجتمعه.. وكأنه جنس آخر مبتوت الصلة بهم.. وإن كان يعيش بينهم.

لماذا هذا الجزاء:

ولقد كان هذا الجزاء عادلا. على قدر حجم الخطيئة. ذلك بأنه على قدر أثر الذنب فى نفسك ومجتمعك تكون العقوبة شدة وضعفا.. وعلى أساس الإحساس بالندم.. يكون العفو.. أو يكون الحرمان...

وبهذا المقياس صار المجاهر أفسق الناس.

أولاً: قد يكون الذنب صغيرا.. ولكنه فى حق العظيم سبحانه يصير كبيرا.

ثانيا: ثم فى المجاهرة إصرار على الذنب.. بل مباهاة به.

فالمباهاة شىء غير ما إذا ظهر الذنب على غير إرادتك.. ولكنك.. تتطوع.. دون أن يطلب منك أحد.

ثم إنك تجاهر.. وهى مفاعلة.. مبالغة منك فى الإثم.

بمعنى أنك تقول لكل أحد.. تلقاه فى الطريق.. عرفته أم لم تعرفه.. بدليل ما جاء فى الحديث. يافلان: عملت البارحة كذا وكذا.. بل وكل واحد.. يقول لكل واحد.. لكل فلان.. أو علان.. إلى الحد الذى تصبح البيئة طافحة بالنتن!!.

إنه ينثر الخبر نثر التمر الردىء.. ولا يشترط فى المتلقى أن يكون صديقه أمين سره.. بل المهم أن يرمى بحمولته النجسة فى البيئة الطاهرة.. فيفسد فى الأرض بعد اصلاحها.. بلا ندم.. على مافات.. ولا عزم على إصلاح ما هو آت!!.

وإذن... فلا جرم أن يتوب الله تعالى على كل العصاة.. الذين ينشر عليهم سبحانه رحمته.. أما المجاهر.. فيبقى وحيدا.. هناك يصطلى بفيح الشمس.. وحيدا.

وإذا كان ﷺ يقول: «**اجتنبوا هذه القاذورات التى نهى الله عنها.. فمن ألمّ بشىء منها فليستتر بستر الله**»[1].

إذا كان ﷺ يقول ذلك.. فإن هذا المجاهر لا يكتفى بالإعلان. وإنما هو يقول: عملت البارحة كذا.. وكذا».

ويعنى ذلك: أنه ماجن.. كما فى الرواية الأخرى.

والماجن هو: المستهتر.. والمستهتر هو: المتحلل من كل قيد: قيد الدين. وقيد المروءة: إنه لا يبالى بما يقول: فينظر فيه.. ولا بما قيل له فيتأثر.. أى أن المجاهر صار بالمجاهرة من جملة المجان. ومن طبعه أنه يلقى الرجل.. أى رجل فيقول له.. وبالتفصيل: عملت البارحة كذا. وكذا.. يذكر خطيئاته أولا بأول..

فليست خطيئته فى الماضى البعيد ذكّره بها شىء حاضر.. ولكنها البارحة فهى جديدة.. وهو جهاز اعلام ينشرها فور حدوثها.. فيفضح بذلك نفسه!.

ومن سوء تدبير المجاهر أن الله تعالى يستره..

وما معنى هذا الستر؟ معناه.

يحميه من غيره فلا يفضحه.. ثم هو الذى يتكفل بفضح نفسه.. طواعية واختيارا؟!.

مغزى المجاهرة:

إن المجاهرة لتعكس طبيعة المجاهر والتى تعنى ما يلى:

١ ـ فالمجاهر: لاحياء له من الله.

٢ ـ ثم هو غير شاعر بقدرة الله عليه.

٣ ـ ولا هو شاعر بعقبى ما يفعل.

٤ ـ ثم هو فاقد للحس الإجتماعى الذى هو أساسا مانع من تعكير صفو الحياة حوله بما يشيع ويذيع.

---

(١) أخرجه الحاكم.

٥ ـ ثم كافر بنعمة الستر عليه.. هذا الستر الذى يزيحه هو عن نفسه.. وبيده الآثمة..

من آثار الجهر بالمعصية :

كما قال العلماء:

١ ـ إن المجاهرة بالذنب: استخفاف بحق الله تعالى وحق رسوله ﷺ.

٢ ـ ثم هو استخفاف أيضا بحق صالحى المؤمنين.. وفيه ضرب من العناد لهم.

٣ ـ وهو بهذا يستدعى الخطر على نفسه.. وفى مقدمة هذا الخطر: استخفاف الناس به.. لأن المعاصى تذل أهلها:

إذا أنت لـــم تعرف لنفسك حقها

هوانا بها.. كانت على الناس أهونا

عاقبة المجاهرين :

ويفيد الحديث الشريف: مدح من ستر نفسه.. وذم من فضحها ولأن الأول ستر نفسه فى الدنيا.. فهو جدير بستر الله تعالى فى الآخرة.

أما الثانى: فقد فضح نفسه.. فكان العدل أن يفضحه الله تعالى فى الآخرة..

ومن عدل الإسلام أنه قد يكون للجاهر خطايا لم يعلن عنها.. ومن أجل ذلك.. جاز ذكر الفاسق بما جاهر به من ذنوبه.. دون ما لم يجاهر به !!.

أما بعد

فقد روى البخارى بعد الحديث السابق «أن رجلا سأل ابن عمر رضى الله عنه: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى؟.

قال: « **يدنو أحدكم من ربه حتى يصع كنفه ـ أى جانبه ـ عليه فيقول: عملت كذا.. وكذا. فيقول: نعم. ويقول: علمت كذا وكذا. فيقول: نعم. فيقرره. ثم يقول:**

«إنى سترت عليك فى الدنيا فأنا أغفرها لك اليوم»[1].

وهذا أسلوب فى الدعوة يزواج بين الترغيب والترهيب.. جاعلا من الأمل في عفو الله تعالى مسك الختام.. داعيا فى نفس الوقت كل مجاهر مستهزئ أن يعود إلى الله تعالى.. فارا إليه.. مقبلاً عليه.. وربنا الرحمن لا يرد سائلا.. ولا يخيبّ راجياً.

قال بعض الباحثين:

لم تتفق الشرائع والقوانين والعادات والأعراف على شىء كما اتفقت على منع المجاهرة بالمعصية حفاظا على الآداب العامة وحرصا على كيان المجتمع وسلامته. والمجاهرة بالعصية تكون إما بفعلها علنا أو بالتحدث عنها بعد اقترافها سرا، فى كلتا الحالتين تجد سافر للأعراف والقوانين كما أن فيها اغراء للآخرين، من هنا كان المنع وكان القول المأثور: « إذا بليتم فاستتروا».

أقول ذلك بمناسبة ما تطالعنا به الصحف فى الآونة الأخيرة من أحاديث يدلى بها بعضهم: وهم فى موضع القدوة عند كثيرين ـ يعترفون فيها ببعض ما اقترفوه من معاص ومنكرات وليت اعتراف هؤلاء اعتراف ندم وتوبة ولكنه فى الغالب اعترف مباهاة وتلذذ وتحسر على تلك الأيام الخوالى وكان لسان حالهم يقول:

ألا ليت الشباب يعود يوما. فأخبره بما فعل المشيب.

يفعلون ذلك وينسون أو يتناسون حديث رسول الله ﷺ أن الله يغفر للمذنبين ماعدا المجاهرين.

ولو أن تلك الجاهرة حدثت من عامة الناس لأنكرناها عليهم فما بالك عندما تحدث من خاصتهم وممن لهم فى مواطن القدوة عند كثيرين هنا، لا يسعنا إلا أن تقول: أيها القدوة اتقوا الله فى شبابنا!!.][2].

●●●●●

(١) الأدب المفرد رقم ٣٥٧٩.

(٢) د. عبد الفتاح الفاوى..

الأرواح بين

التآلف.. والتخالف

يقول ﷺ: **«الأرواح جنود مجندة: فما تعارف منها ائتلف . وما تناكر منها اختلف»**[1].

فى الطريق إلى قريتى. . تذكرت ذلك الصديق القديم. . والذى لم أره منذ عشرين عاماً. وقلت: أين أنت الآن؟

ثم شغلتنى مشاهد الطريق المرئية والمسموعة.

فلما انتهيت إلى دارى وجدت هناك خطابا من هذا الصديق القديم آتيا من راء البحار يذكرنى بأيام عزاز خلت من عمرنا

وقلت حقا. . إن الأرواح جنود مجندة. . إن لها عالمها. . ومقاييسها. . وقوانيها. .

﴿قل الروح من أمر ربى..﴾

أما قصة حديث اليوم: فقد ورد أن امرأة مزاحة. . كثيرة المزاح. . نزلت المدينة. . ثم اتجهت إلى امرأة مزاحة مثلها. . فقالت عائشة:

صدق حبى لرسول الله ﷺ . . ثم ذكرت الحديث. . ذلك بأن الطيور على أشكالها تقع:

وقد كان الوفد يأتى إلى المدينة فيقول الرجل. . لرجل من الوفد القادم:

عرفنا خياركم وشراركم. .

فإذا سئل : كيف؟ قال: قصد خياركم خيارنا. . وقصد شراركم شرارنا. . فعرفناكم!!

ومعنى الحديث:

أن النفوس تلتقى بحسب الطباع:

(١) البخارى. فتح الباري ج/٦ رقم ٣٣٣٦. .

فإذا اتفقت.. تعارفت.. وتآلفت..

وإذا اختلفت.. تنافرت.. وتناكرت

فالخير يميل إلى الخير..

والشرير.. يميل إلى الشرير..

وصدق الله العظيم: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ (١).

قال الخطابى:

[يحتمل أن يكون إشارة إلى معنى التشاكل فى الخير والشر. والصلاح والفساد.

وأن الخير من الناس يحن إلى شكله. والشرير نظير ذلك: يميل إلى نظيره.

فتعارف الأرواح يقع بحسب الطباع التى جبلت عليها من خير وشر.

فإذا اتفقت .. تعارفت.. وإذا اختلفت تناكرت] (٢).

وقال القرطبى: «الأرواح وإن اتفقت فى كونها أرواحا.. لكنها تتمايز بأمور مختلفة.. تتنوع بها.

فتتشاكل أشخاص النوع الواحد. وتتناسب بحسب ما اجتمعت فيه من المعنى الخاص لذلك النوع للمناسبة.

ولذلك نشاهد أشخاص كل نوع تألف نوعها. وتنفر من مخالفها ثم إنا نجد بعض أشخاص النوع يتآلف.. وبعضها يتنافر: وذلك بحسب الأمور التى يحصل الاتفاق والانفراد بسببها»(٣).

وهنا سؤال:

قد يتنافر البعض.. ثم يتآلف.

---

(١) النور: ٢٦ .

(٢) فتح البارى ج٦/ ٣٦٩.

(٣) الموضع السابق.

ويجيب العلماء قائلين:

أن التعارف والتناكر.. بحسب الخلقة.. لكن قد يحدث التآلف. بسبب تغيّر طارئ: كاسلام كافر. أو توبة عاص.

من تدعيات الحديث :

وقد يحدث أن يجد المسلم فى نفسه نفورا من عالم مشهود له بالفضل والكفاءة.

وقد يكون ذلك المسلم موظفا يؤثر المنحرفين باهتمامه.. بينما لا يلقى بالا للأكفاء الفضلاء.

وينصح العلماء هنا بالبحث عن الجذور.. عن أسباب هذا الوضع المعكوس.. هل هو فى قلب الموظف.. أم فى قلوب الآخرين.. حتى إذا عرف السبب.. حاول كل طرف أن يصلح من شأنه لتستقر الأوضاع فى النهاية على قاعدتها المستقرة.

من صور التآلف والتخالف :

قال عمر بن شبّه: التقى أخوان فى الله.. فقال أحدهما لصاحبه:

والله يأخى.. إنى أحبك فى الله.. فقال له الآخر: لو علمت منى. ما أعلمه من نفسى.. لأبغضتنى فى الله ! فقال: والله يا أخى لو علمتُ منك ما تعلمه من نفسك لمنعنى من بغضك ما أعلمه من نفسى »[1].

ومن هذه المدرسة رواد منهم الحسن بن سهل.

فقد اعتل بعض إخوان الحسن بن سهل فكتب إليه الحسن. أجدنى وإياك. كالجسم الواحد. إذا خصَّ عضوا منه ألمٌ.. عمّ سائره... فعافانى الله بعافيتك.. وأداك لى الإمتاع بك، وتلك هى الأخوة الروحية.. والتى لا تتم حتى يقول أحدهما للآخـــر: يا أنا.. كما أشار المرحوم الرافعى.

وما أصدق القائل:

بينـــى وبين لئـام الناس معتبة ... ما تنقضى.. وكرام الناس إخوانى

---

(١) الصداقة للتوحيدى: ٤٦ ، ٤٧.

إذا لقيت ليئم القوم عنفنى　　وإن لقيت كريم القوم حيّانى

وما أكثر الغرباء من الشرفاء الذين لا يجدون لهم قريناً.. فقد ذهب الذين يعاش فى أكنافهم:

إذا ذهب القرن الذى أنت فيهمو　　وخُلفت فى قوم... فأنت غريب

علة الأرواح:

ولقد كان الثقلاء نشازا فى لحن المجتمع المتناسق.. ومن ثم كانوا علة الأرواح.

قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها: كفى الثقلاء ذما... أن الله تعالى أنزل فيهم قرآنا:

﴿ولا مستأنسين لحديث..﴾.

قيل للشعبى يوما: ما يمرض الروح؟

قال: مجالسة الثقلاء !! فشوهد يوما بين ثقيلين فقيل له: كيف روحك الآن؟

فقال: فى النزع الأخير!!

وقال آخر: إذا كان على شمالك فى الصلاة ثقيل.. فتكفيك تسليمة واحدة!!.

ويبقى المتقون فى النهاية محتفظين بعافية أرواحهم.

﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾ إن هدف المتقين.. واحد.

فلماذا يختلفون؟!.

إنما يختلف الشركاء المتشاكون.. الذين ينقضون عزلهم من بعد قوة أنكاثا!!.

●●●●●

[الرضا بالقضاء]

قدم وفد على رسول الله ﷺ فقال: ما أنتم؟ فقالوا مؤمنون. فقال:

«ما علامة إيمانكم؟ »فقالوا: الصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضا بمرّ القضاء. والصدق فى مواطن اللقاء، وترك الشماتة بالأعداء.

فقال: **«حكماء علماء. كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء»**(1).

إذا كانت هذه الفضائل هى خيوط الشخصية الإسلامية المتكامل.. فإن الرضا بِمُرِّ القضاء هو تلك العقدة التى تجمع كل هذه الخيوط.

ذلك بأن من يرضى بقدر الله فقد أقام الإيمان، وفرّغ يديه ورجليه لكسب الخير.. وأقام الأخلاق الصالحة التى تُصلح للعبد أمره.

وأن الرضى يفتح باب حسن الخلق مع الله تعالى ومع الناس. فإن حسن الخلق من الرضى. وسوء الخلق من السخط وحسن الخلق يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم. وسوء الخلق يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»(2).

من أجل ذلك أو شك هؤلاء الناس أن يكونوا أنبياء.. بما استجمعوا من خصال الخير التى هى فى مجموعها: تجاوز هوى النفس..لتسلم علاقة المرء مع الله تعالى رضا بقضائه ثم علاقته بالناس من حوله بإيثارهم على نفسه

منزلة الرضا :

يقول ابن القيم: «الرضا آخر التوكل: فمن رسخ قدمه فى التوكل والتسليم والتفويض.. حصل له الرضى ولابد.

ولكن.. لعزته وعدم إجابة أثم النفوس له. وصعوبته عليها. لم يوجبه الله على خلقه، رحمة بم، وتخفيفاً عنهم.. ولكن نديهم إليه. وأثنى على أهله.. وأخبر أن ثوابه رضاه عنهم. الذى هو أعظم وأكبر وأجل من الجنان وما فيها. فمن رضى عن ربه

---

(1) عن مدارج السالكين ج2/ 227.

(2) المرجع السابق 299.

ثوابه رضاه عنهم. الذى هو أعظم وأكبر وأجل من الجنان وما فيها. فمن رضى عن ربه رضى الله عنه. بل رضى العبد عن ربه من نتائج رضى الله عنه فهو محفوف بنوعين من رضاه عن عبده»[1].

ثم يقول: «ومن أعظم أساب حصول الرضا:

أن يلزم ما جعل الله رضاه فيه، فإنه يوصله إلى مقام الرضا ولابد.

قيل ليحيى بن معاذ:

متى يبلغ العبد إلى مقام الرضى؟ فقال: إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به ربه: فيقول: إذا أعطيتنى.. قبلت. وإن منحتنى.. رضيت. وإن دعوتنى.. أجبت.

وقال ابن عطاء: الرضا: سكون القلب إلى قديم اختيار الله للعبد. أنه اختار له الأفضل.. فيرضى به. وهنا رضى بما منه. وأما الرضا به:

فأعلى من هذا وأفضل، ففرق بين من هو راض بمحبوبه.. وبين من هو راض بما يناله من محبوبه من حظوظ نفسه]

[الابتلاء والطريق إلى المعالى]

لما كان أشد الناس بلاء الأمثل. فالأمثل.. كان الأنبياء عليهم السلام أقسى البشر امتحانا.. يقول ابن قيم الجوزية[1].

«وإذا تأملت حكمته تعالى فيما ابتلى به عباده. وصفوته.. بما ساقهم به إلى أجلّ الغايات. وأكمل النهايات. التى لم يكونوا يعبرون إليها إلا على جسر من الابتلاء والامتحان.

وكان ذلك الجسر لكماله.. كالجسر الذى لا سبيل إلى عبورهم إلى الجنة إلا عليه.

وكان ذلك الابتلاء والامتحان عين المنح فى حقهم والكرامة: فصورته صورة ابتلاء

---

(١) مفتاح دار السعادة / ٣٢١.

وامتحان.. وباطنه فيه الرحمة والنعمة، فكم لله من نعمة جسيمة. ومنه عظيمة. تجنى من قطوف الابتلاء. فتأمَّلْ حال أبينا آدم. وما آلت إليه محنته من الاصطفاء والاجتباء والتوبة ورفعة المنزلة.

ولولا تلك المحنة التى جدت عليه. وهى إخراجه من الجنة.. لما وصل إلى ماوصل إليه.

فكم بين حالته الأولى وحالته الثانيه فى نهايته.

وتأمل حال أبينا الثانى. نوح عليه السلام.. وماآلت إليه محنته وصبره على قومه تلك القرون كلها.. حتى أقر الله عينه. وأغرق أهل الأرض بدعوته. وجعل العالم بعده من ذريته.

وجعله خامس خمسة وهم أولو العزم. الذين هم أفضل الرسل. وأمر رسوله محمدا ﷺ أن يصبر كصبره. وأثنى عليه بالشكر فقال:

﴿ **إنه كان عبدا شكورا**﴾ فوصفه بكمال الصبر والشكر.

ثم تأمل حال أبينا الثالث: ابراهيم ﷺ: إمام الحنفاء وشيخ الأنبياء. وعمود العالم. وخليل رب العالمين من بنى آدم.. وتأمل ما آلت إليه محنته. وصبره. وبذله نفسه.

وتأمل كيف آل به بذله لله نفسه.. ونصره دينه إلى أن اتخذه الله خليلا وأمر رسوله محمد ﷺ أن يتبع ملته.

وأنبهك على خصلة واحدة مما أكرمه الله به فى محنته بذبح ولده: فإن الله تبارك وتعالى جازاه على تسليمه ولده لأمر الله.. بأن بارك فى نسله.. وكثَّره حتى ملأ السهل والجبل».

وهكذا تنحسر اللحظات العصيبة.. لتستحيل المحنة ـ بالرضا منحة وذكرا فى العالمين حسنا.

بينما راح الطغاة غير مأسوف عليهم.

راحوا.. فما بكت الدنيا لمصرعهم..ولا تعطلت الأعياد والجمع.

أمر الله تعالى بالصبر.. ولم يأمر بالرضا.. لصعوبته.. وإنما مدح سبحانه أهله وأثنى عليهم.

والرضا بما أنزل الله بالعبد من بلاء مطلوب.. أما مع الأوامر الشرعية بالعمل.. والجهاد.. والسير نحو الكمال.. فمع ضرورة الرضا.. فالعبد مكلف بالصعود فى مدارج الكمال.. لا يقف توقفه مع الشئون الكونية مسلِّما.. حال الصحة والمرض.. والغنى والفقر.

ذكروا. أن عابدا عبد الله تعالى دهرا طويلا.

فأرىَ فى المنام: أن فلانة الراعية.. رفيقتك فى الجنة.

فسأل عنها. إلى أن وجدها، فاستضافها ثلاثا لينظر إلى عملها. فكان يبيت قائما.. وتبيت نائمة ويظل صائما.. وتظل مفطرة. فقال لها:

أما لك عمل غير ما رأيت؟ قالت: ما هو والله غير ما رأيت.. لا أعرف غيره. فلم يزل يقول لا: تذكرى.. حتى قالت: خُصَيلة واحدة هى فىّ. وذلك.

إنى إن كنت فى شدة.. لم أتمنّ أنى فى رخاء. وإن كنت فى مرض... لم أتمن أنى فى صحة. وإن كنت فى الشمس.. لم أتمن أنى فى الظل.

فوضع العابد يده على رأسه وقال: أهذه خُصيلة؟!! هذه والله خصلة عظيمة يعجرز عنها العبَّاد].

وفى موقف الجارية.. وفي منطق العابد ذكرى للمؤمنين الذين اتخذوا من الرضا ركوبهم.. قال ابن مسعود رضى الله عنه :«الفقر والغنى مطيتان.. ما أبالى أيهما ركبت.

إن كان الفقر.. ففيه الصبر.. وإن كان الغنىْ.. ففيه البذل».

ويأخذ الرضا هنا معناه الإيجابى:

ففى حالة الفقر.. تصلب الإدة فى مواجهة تداعياته.. وفى حال الغنى يكون البذل الذى يجد الله تعالى به شباب الأمة. وإلا.. فإن غياب فضيلة الرضى مفض

بالمسلم إلى نهاية مفزعة: قال بعض العارفين:

«أعرف فى الموتى عالماً ينظرون إلى منازلهم فى الجنان فى قبورهم: يُغْدَى عليهم ويُراح يرزقهم من الجنة بكرة وعشيا.

وهم فى هموم وكروب فى البرزخ: لو قسمت على أهل بلد لماتوا أجمعين.

قيل: وما كانت أعمالهم؟ قال: كانوا مسلمين مؤمنين.. إلا أنه لم يكن لهم من التوكل ولا من الرضا نصيب»[1].

وعلى هذا الأساس كانت فضيلة الرضا قطب الرحى... وحجر الزاوية فى بناء الشخصية المسلمة الكاملة.

قيل لابن الحوارى: إن رجلا يقول: وددت أن الليل أطول مما هو فقال: قد أحسن.. وقد أساء.

أحسن. حيث تمنى طوله للعبادة. والمناجاة. وأساء: حيث تمنى ما لم يرده الله. وأحب مالم يحبه الله».

ولقد كان ابن الخطاب على أو فى معانى الرضا حين قال: ما أبالى على أى حال أصبحت وأمسيت: من شدة أو رخاء؟ وهو إنذار موجّه لكثير من البشر يصبحون فإذا حياتهم مهددة بخطر عظيم: من مرض.. أو فقر.. ثم تقوم قيامتهم.. ويهتز يقينهم.. فلا ينفعهم إيمانهم عندئذ.. مادام قد فقد إكسيره وهو الرضا..

وهو الدرس الذى نتعلمه أيضا على يد زوجة عمر رضى الله عنه لما قال لها يوما وقد غضب عليها.

والله لأسوأنك. فقالت: أتستطيع أن تصرفنى عن الإسلام بعد إذ هدانى الله له.

فقال: لا.. فقالت: فأى شيء نسوء لى به إذن؟!!.

ويعلق ابن القيم على ذلك قائلاً:

«تريد أنها راضية بمواقع القدر. لا يسوءها منه شيء. إلا صرفها عن الإسلام.. ولا سبيل له إليه»[2].

إنهم رجال.. ونساء.. خرجوا من مراد أنفسهم إلى مراده تعالى: يسبق حبهم لله

---

(1) المرجع السابق ٢٨٨ ـ ٢٨٩.

(2) المرجع السابق.

كل حب.. ويقهر كل حب.. وكل ما يحبونه تابع لحبهم لله تعالى.. والذى هو محبوبهم بالأصالة.

بل إنهم كانوا ـ كما قال ابن القيم:

يستعملون الرضا.. ولا يمكنونه من أن يستعملهم.. بمعنى: أن لذة الرضا لم تحجبهم عن حق الله تعالى.. والرضا به تعالى ربا.

وفى طليعتهم أيوب عليه السلام

يقول الله تعالى:

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء ٨٣ ـ ٨٤].

قال علماؤنا:

١ ـ يذكر الله تعالى نبيه ﷺ بموقف عظيم من مواقف أيوب عليه السلام.. فله فيه قدوة.

٢ ـ إذ نادى ربه: فالله تعالى ربه.. ومهما كان حجم الضر فهو تعالى ولىّ نعمته.. حيث أقدره على النجاح فى امتحان البلاء.

٣ ـ قال: مسّنى.. تأدبا.. ولم يقل: دمّرنى.

٤ ـ لم يطلب عليه السلام رفع البلاء.. وإنما هو فقط يطلب الأذن بالدخول فى ساحة رحمته سبحانه.. وهذا كافيه.

٥ ـ فاستجبنا له. هكذا «بالفاء» إشارة إلى سرعة الاستجابة التى وافت بعد الدعاء.

٦ ـ وكان الجزاء وافرا غدقا:

أ ـ كشف الضر... ب ـ آتيناه أهله... جـ ـ بل ضعفهم معهم.

د ـ وكان ذلك رحمة.. وكان ذكرى للعابدين.. حتى تنفعهم الذكرى.

فى الطريق إلى تحصيل ملكة الرضا عقبات ينبغى تجاوزها.. عقبات من النفس.. ومن الواقع.

والإسلام يعين المسلم على اقتحام هذه العقبات بمجموعة من المعونات.. تأخذ بيده ليصل إلى بر السلامة آمنا.. راضيا.. ومن هذه المعونات:

١ ـ الصبر.

يقول ابن القيم الجوزية[1]:

«الصبر: حبس النفس عن الجزع والتسخط. وحبس اللسان عن الشكوى. وحبس الجوارح عن التشويش».

ومعنى ذلك: أن الصبر تدريب عملى.. يستعمل الإنسان لتحصيله وترسيخه كيانه كله.. فإذا نجح فى أخذ كيانه كله بفضيلة الصبر ذاق حلاوته.. وكان ذلك سبيلا إلى التحلى بفضيلة الرضا. وقد ضرب «ابن القيم» يوسف عليه السلام مثلا.. قال:

«كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها.. أكمل من صبره على إلقاء إخوته له فى الجب. وبيعه. وتفريقهم بينه وبين أبيه.

فإن هذه الأمور جرت عليه بغير اختياره. ولا كسب له فيها ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر.

وأما صبره عن المعصية: فصبر اختيار ورضى. ومحاربة للنفس...ولاسيما مع الأسباب التى تقوى معها دواعى الموافقه.

فإنه كان شابا.. وداعية الشباب إليها قوية.

وعزَبا.. ليس له ما يعوِّضه ويرد شهوته.

وغريبا.. والغريب لا يستحى فى بلد غربته مما يستحى منه مَنْ بين أصحابه.. ومعارفه.. وأهله.. ومملوكا.. والمملوك أيضا ليس وازعه كوازع الحر.

والمرأة جميله. وذات منصب. وهى سيدته. وقد غاب الرقيب. وهى الداعية له

(١) مدارج السالكين ج٢/١٦٢.

إلى نفسها. والحريصة على ذلك أشد الحرص. ومع ذلك توعدته إن لم يفعل: بالسجن والصغار.. ومع هذه الدواعى كلها.. صبر اختيارا.. وايثارا لما عند الله. وأين هذا من صبره فى الجب على ماليس من كسبه»[1].

٢ ـ استشعار نعمة الدفع

قال الفتى اليافع للشيخ الفانى: كم من العمر تبلغ؟

قال الشيخ: الصحة جيدة. والحمد لله.

قال الفتى: وما هى أوضاعك المالية؟

قال الشيخ: لست مدينا لأحد.

قال الفتى: لعل لك أعداء..

قال: ليس لى أقارب !!.

والدرس المستفاد هنا هو:

أنه إذا كان الناس يتنافسون فى نعمة النفع البادية من سؤال الفتى عن أوضاع الشيخ المالية.. فإن السعادة ليست قرينة المال.

هذه السعادة التى أفسدها التسابق المجنون وراء زيادة الرصيد الذى لن يقنع أحدا مهما بلغ هذا الرصيد.

وإنما السعادة كما يعلمنا الشيخ تكمن فى دفع الله عنك كثيرا من البلايا.

فقد عافاه الله تعالى من المرض.. فكان سليما معافى.. ثم هو ليس مدينا لأحد فبرأه الله من هم الليل وذل النهار.

وهو وإن لم يكن أميرا فى أمته.. فيكفى أن الله تعالى كفاه شر الأعداء.. فعاش آمنا فى سربه. وفى ذلك فليتنافس المتنافسون. المتنافسون فى الخيرات.. الراغبون فى أن يعينهم الله على دينهم بالطاعة.. وعلى دنياهم بالقناعة.

(١) أخرجه الحاكم.

٣ ـ جاء فى صيد الخاطر[1]. تعليقا على ما قد يحدث من أمور تحير العقول:

(حين يبدوالكافر والعصاة أغنياء . . والمؤمنون فقراء . . قال ابن القيم تعليما للمؤمن الذى أقترح عليه أن يقول فى مواجهة ما يراه محيِّرا:

«قد ثبت عندى بالأدلة القاطعة على حكمة المقِّدر. فلا أترك الأصل الثابت. لما يظنه الجاهل خللا.

ومنها أن يقول المؤمن: ما قد استهولته أيها الناظر من بسط يد العاصى . . هى قبض فى المعنى.

وما قد أثر عندك من قبض يد الطائع . . بسط فى المعنى . . لأن ذلك البسط ـ للكافر والعاصى ـ يوجب عقابا طويلا . . وهذا القبض يوثر انبساطا في الأجر جزيلا.

فزمان الرجلين ينقضى عن قريب . . والمراحل تطوى . . والركبان فى السير الحثيث.

ومنها أن يقول: قد ثبت أن المؤمن بالله كالأجير . . وأن زمن التكليف كبياض النهار.

ولا ينبغى للمستعمل فى الطين أن يلبس نظيف الثياب. بل ينبغى أن يصابر ساعات العمل . . فإذا فرغ تنظف . . ولبس أجود ثيابه.

فمن ترفّه وقت العمل . . ندم وقت تفريق الأجرة. وعوقب على التوانى فيما كلف . . فهذه النبذة تقوى أزر الصبر. وأزيدها بسطا فأقول:

أترى إذا أريد اتخاذ شهداء . . فكيف لا يُخلق أقوام يبسطون أيديهم لقتل المؤمنين . . ولو أن عين الفهم زال عنها غشاء العشا . . لرأيت المسبِّب . . لا الأسباب . . والمقدر . . لا الأقدار . . فصبرت على بلائه . . إيثارا لما يريد . .

ومن هنا ينشأ الرضا.

وكما قيل لبعض أهل البلاء: ادع الله بالعافية فقال: أحبُّه إلىّ أحبُّه إلى الله عز وجل.

---

(1) ـ ١٠٠ ـ ١٠١.

إن كان رضاكـــــم فى سهرى فسلام الله علـــــى وسنـــــى

ورحم الله أبرارا أداروا ظهورهم لنعيم الدنيا.. راضين من العيش بالكفاف.. حتى قال قائلهم:

أقول لنفسى حين مالت لصفوها إلى خـــطوات قـــد نَتَجْن أمانيا

فهبنى من الدنيا ظفرت بكل ما تمنيت.. أو أعـــطيت فـــوق منائيا

أليس الليالى غاصبا تى مهجتى كما غصبت قبلى القرون الخواليا؟!!.

٤ ـ فى ذاكرتى من اثار شيخى:

هل أنت ساخط أن كنت فقيرا.. وغيرك يرفل فى بُحبوحة النعيم:

ياأخى...

إن فلسفة الرزق أدق من أن تُدرك.. وأبعد من أن تنال. ثم.. هل يسرك أن تزداد مالا.. ثم تكون غبيا؟!!.

واستمع إلى منطق أهل الرضا على لسان أحدهم والذى يقول: أنا لا آكل أطيب مما يأكل الأغنياء.. كما وأنى لا ألبس أغلى مما يلبسون.

ولكننى..راضٍ.. وهم لا يرضون !!.

وهل يلبس الغنىّ عشرين ثوبا.. وعشرين حذاء؟١١.

ثم.. إن دوام الحال من المحال.. وقد يتبادل الأغنياء والفقراء المواقع فى يوم قريب.

وفى القبور: لا تميز لجمجمة الملك.. على جمجمة الخفير!!.

٥ ـ وفى السنة المطهرة ما ينشىء فى قلوب المبتلين فضيلة الرضا:

يقول ﷺ: «**إن العبد المؤمن: ليدعو الله تعالى. فيقول الله تعالى لجبريل: لا تجبه!! فإنى أحب أن أسمع صوته!!**

وإذا دعا الفاجر قال ياجبريل: اقض حاجته.. إنى لا أحب أن أسمع صوته»[1].

وجاء فى كنز العمال أيضا:

[إنما أجبت الكافر لئلا يدعونى. ولا يذكرنى. فإنى أبغضه وأبغض صوته.

وأبطئ للمؤمن لئلا ينقطع عنى. ويذكرُنى. فإنى أحبه. وأحب تضرعه»[2].

وهذا التوجيه النبوى الشريف يقطع ألسنة تفلسف الأحداث على مزاجها:

فهى تقول: فلان مريض.. بسوء عمله.. وذاك فقير.. قضاء لدين عليه..

وقد تغريهم صحتهم.. ويسر أعمالهم بمزيد من التجنى على أناس ابتلاهم ربهم.

ولكن الحديث الشريف يحسم القضية على نحو قد يكون الابتلاء بالمرض فيه نقلا لعبده المبتلى إلى معيته سبحانه ورعايته.. وكيف صار بالمرض حبيبا إليه سبحانه.. دون هؤلاء الشامتين الظانين بالأبرار ظن السوء.. والذين تقضى مصالحهم تخلصا من دمهم الثقيل.. من حيث كانوا شخصيات غير مرغوب فيهم..

ويبقى المرضى من المتقين.. فى كنف الله تعالى.. ولا يبقى إلا أن يذكروا ذلك.. ليذكر الله الذى اصطفاهم.. لما ابتلاهم!!.

والمسلم الحق. لا يحمِّل يومَه هموم غده:

لأن الغد إن كان من عمره.. فسيأتيه ما قدر له لا محالة. وإلا.. فما شغلك بما ليس لك؟!.

٦ ـ إن فعل الله كله خير.. ولا يُنسب سبحانه إلى الشر

والشر إذا وقع.. فإنما يقع فى المفعولات.. ولا يقع فى الفعل. فما يقع من مصيبة مكروهة لك.. هى شر بالنسبة إليك: لكن الشر فى المقدّر.. لا فى تقدير الله تعالى.. لأنه تعالى لا يقدر إلا لحكمة.

وكما قال علماؤنا: قد تُضَرّ أنت.. لكن فى ضررك مصلحة لغيرك، وذلك مثل المطر. قد يهدم بيتك.. لكن فيه نفع عام.

(١) ابن النجار عن أنس. كنز العمال ٢/ ٨٥.

(٢) ج٢/ ٢٦.

أما بعد.. فقد دق جرس الهاتف.. وكان المتحدث مجهولا.. ويسأل ربة البيت: عن اسم الوليد الجديد. فلما قالت: سميتها مريم.. أحست لدى المتحدث بنبرة الفرح؟!. ولما جاء سيد البيت.. استطاع أن يحل المعادلة الصعبة.

إن السائل حاسد.. سره أن يكون الوليد أنثى.. بدل أن يكون ولدا يضيف لحساب البيت قوة؟!!.

يفعل هذا.. بينما البيت يستقبل الأنثى بحفاوة.. سائلا الله تعالي أن ينبتها نباتا حسنا.. وأن يعيذها من الشيطان الرجيم.. وأن يعيذنا نحن أيضا من شياطين الإنس.. المتعيون .. المتعبون ورحم الله أبا العتاهة حين قال:

قد شاب رأسى ورأس الحرص لم يشب

إن الحـــــريص على الدنيا لفى تعب

مالى أرانـــى إذا حـــاولت منزلـــة

فنلتهـا.. طمحـــت نفسى إلـى رتب

لو كان ينفعنى علمـــــى وتجــــربتى

لـــم أشف غيظى من الدنيا ولا كلبى

حتى لا يكون صدام

قال ﷺ: «**إن من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه**». قالوا: يارسول الله: وكيف يسب الرجل والديه؟ قال: «**يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه. ويسب أمه. فيسب أمه**»(1).

وفى رواية: «**.. فيسب أباه. ويسب أمه**».

ينبه الحديث الشريف إلى أدب من آداب السلوك والمعاشرة هو: ألا نتبادل الشتائم. ولا نتنابز بالألقاب. لا جدّا.. ولا هزلا.. لما يترتب على ذلك من مخاطر تقطع ما أمر الله تعالى به أن يوصل من علاقاتنا.

---

(1) البخارى. فتح ج/٦ رقم ٣٣٣٦..

والبديل هو ما يليق بنا: تبادل المحبة والمودة.. وتهادى الكلم الطيب، وعلى الأقل: إذا لم تساعدنا على أن نتعايش فى وئام.. فلنعش فى سلام. ولاحظ من فقه الحديث كما تقول الرواية الثانية:

«فيسب أباه. ويسب أمه».

لاحظ كيف كان رد الفعل لدى المشتوم عنيفا حيث لم يكتف بشتم والد خصمه.. لكنه زاد فسب أمه.. الأمر الذى من أجله أراد ﷺ بهذا الحديث الشريف أن يحسم مادة الشرس ابتداء حتى لا يكون عدوان بالمرة.

إن الواقع الماثل يخبرنا بهذه الحقيقة وهى: أن نار المدفأة تلتهب.. كلما ألقينا فيها حطبا!.

بمعنى اندفاع الدماء فى العروق.. ثم يتعقد الموقف.. ليصير الأمر على ما قيل:

إن الدخول فى العداوة.. سهل ميسور أما الخروج منها.. فهو الصعب الذى لا نملكه.

ثم إن للشيطان فى مثل هذا الموقف حضورا مكثفا.. فتلك فرصته.. والمفروض هو: ضبط النفس.. والعياذ بالله اتكالا على الله تعالى.. قبل أن نسلم زمامنا للشيطان المتربص بنا.

مغزى استفهام الصحابة:

وعندما يسأل الصحابة متعجبين مسترشدين قائلين: كيف يسب الرجل أباه..

يكشف لهم رسول الله ﷺ لهم: أننا قد لا نباشر زرع الشوك.. لكن بذرته كامنة فينا.. وقد تنبت الزروع سقيمة.. ذابلة.. لأن ملوحة الأرض مانعة من استوائها على سوقها تعجب الزراع.. قد تحمل على أمر.. وبشده.. مع أننا سببه.. وبطريق غير مباشر.

كيف؟

ذلك بأننا بشر.. تخد عنا المظاهر.. نستمسك بها.. ثم نحاول أن نربط المسببات

بأسبابها كما تبدو لنا فى عيوننا. . بينما وفى نفس الوقت ـ تكون هناك أسباب غير مرئية. هى التى صنعت الموقف.

وهذه الأسباب من صنعنا نحن. . فنحن الملومون!.

وعلى الذين يغضبون فتنتفح بالغضب أوداجهم. . عليهم أن يبحثوا عن العلة داخل أنفسهم.

فقد بدأت بالشتم. . بالظلم. . والبادى أظلم. . لقد شتمت أخاك. . فكنت السبب فى أنه شتم أباك وشتم أمك.

إنها مشكلة اجتماعية. . إذن.

والإسلام يضع مفتاح الموقف. . فى يدك أنت. . وما أكثر المواقف التى تتبدد فيها طاقاتنا. . حين نتلاوم آسفين. . ثم نكيل التهم. . غاضبين. .

والحديث الشريف دعوة إلى اختزال هذا التلاوم. . وتجنب هذه الشحناء. . ابتداء. . حتى لا يكون خصام ولا ملام. .

وإذا يخاطب القرآن. . وتخاطب السنة قوما يسمعون. . لأنهم مؤمنون.

فإن ذلك يعنى أن القضية المعروضة من الانكشاف والظهور. . بحيث يكفى فيها مجرد السماع!!.

●●●●●

الإسلام
والتلوث السمعى

عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن العبد إذا لعن شيئا: صعدت اللعنة إلى السماء.. فتغلق أبواب السماء دونها. ثم تهبط إلى الأرض.. فتغلق أبوابها دونها. ثم تأخذ يمينا وشمالا. فإذا لم تجد مساغا - منفذا - رجعتْ إلى الذى لُعن: فإن كان أهلا لذلك.. وإلا رجعت إلى قائلها**»[1].

تمهيد

كما يحرص الإسلام على حماية البيئة الطبيعية من التلوث المادى. . فإنه أحرص مايكون على حماية البيئة الأخلاقية من التلوث السمعى.

إن الضحيج الهاجم. . يؤثر على القالب. . على القلب الذى يرقد فى صدرك. . وهو الذى يضخ الدماء. . فى شرا يينك. . أما القلب. . بمعنى اللطيفة الربانية الذى به. . تشعر. . وتتأثر. . فإنه يمرض حتى بالكلمة النابية تسمعها.

وهذا إشارة إلى ماللكلمة من أثر فعال: سلبا وإيجابا. . تلك الكلمة التى تطلقها. . فتهوى بك فى النار سبعين خريفا. . وقد ترتفع بك إلى الفردوس الأعلى. . فاختر لنفسك ما يحلو.

إنك. . برغيف الخبز. . تعيش يوما. . ولكنك. . وبالكلمة الطيبة. . تعيش عمراً.

وتأمل دقة الإحساس بخطر الكلمة فى قول أحدهم:

إننى إذا أردت أن أنطق بالكلمة. . تمنيت أن لى رقبة «زرافة».

فلما قيل له: ولماذا؟ قال:

حتى يطول الطريق أمام الكلمة قبل أن أنطق بها. . وذلك حتى يتسنى لى أن أقدِّر: هل هى لى. . فأقولها. . أم هى علىّ. . فأحبِسَها؟!!

---

(١) رواه أبو داود فى: «رياض الصالحين برقم ١٥٥٦».

من فقه الحديث:

لم يقل ﷺ: إن المؤمن. . أو المسلم. . إذا لعن شيئا. . ولكنه قال: «إن العبد. . .»

ذلك بأن المسلم. . المؤمن. . بحكم اسلامه. . لا يتوقع منه اللعن.

فوصف الإيمان والإسلام مانع من التورط فى جريمة لعن الآخرين.

وهذا ما أكده الرسول ﷺ فى حديث آخر:

« **ليس المؤمن بالطعان. ولا اللعان. ولا الفاحش. ولا البذىء»**[1].

ولعل اختيار لفظ العبد إشارة إلى ما يلى:

إن الطعن يعنى: الطرد من ساحة الرضوان. . من رحمة الله تعالى:

وأنت أيها اللاعن: عبد. . مملوك. . فبأى حق. . وبأى مقياس. . تحاول طرد عيال مخدومك سبحانه من ساحة يملكها. . ولا تملكها؟!.

وإذن فليراجع اللعانون حساباتهم. هؤلاء الذين يستصغرون الكلمة. . وما ينبغى للمسلم أن يستصغر شيئا: فإن الملوك. قد يؤتون من العدو المحتقر. . والجسم. . قد تكون نهايته فى جرثومة لا ترى بالعين المجردة. . والأنهار العظيمة إنما تتدفق من الجداول الصغيرة.

تطهير البيئة :

يشير الحديث الشريف إلى خطورة رذيلة اللعن. . ولو انصبت على أى شىء:

إنسانا. . أو حيوانا. . أو جمادا. . أو نباتا. . ذلك بأنه يريد فطم اللسان عن عادة تلويث البيئة. . ليظل هذا اللسان رطبا بذكر الله تعالى. .

وإذا كان الحق تعالى يقول: **«ألا بذكر الله تطمئن القلوب»**. . فإنما يريد سبحانه لهذا اللسان أن يصدر إلى القلب طيّب الكلام ليظل نقيا تقياً.

إن أرض الفطرة رحبة. . قابلة لما يُغرس فيها. . فإن غرست شجرة الإيمان والتقوى. . أورثْت حلاوة الأبد.

وإن غرست شجرة الجهل والهوى. . فكل الثمر مرّ.

---

(١) رواه الترمذى. وقال: حديث حسن.

من هدى النبوة :

وفى سنته ﷺ ما يؤكد هذا المعنى: فعن عمران بن الحصين رضى الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره. وامرأة من الأنصار على ناقة. فضجرت. فلعنتها. فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال:

«خذوا ما عليها. ودعوها. فإنها ملعونة»[1].

إنها كلمة صدر تعفوا.. لكنها عكرت الجو.. وتوقف الركب كله من أجلها.. هذا الركب الميمون بقيادة رسول الله.. والذى يستأنف سير بوقوده من العفة.. والنقاء.. والصفاء.

حماية المسلم:

ويحمي الإسلام المسلم ..من اللعن.. حبا .وكرامة..

ويدلك على هذا نسق الحديث الشريف: فاللعنة لا تتجه مباشرة.. وفور النطق بها إلى الجدير بها..

ولكن الحق تعالى يفتح لها هذا الفضاء الكونى.. فلعلها أن تتلاشى فيه.. ولا تؤذى حتى من كان أهلالها. ولكنها تتجه ابتداء إلى السماء:

ثم تقصد إلى كل باب من أبوابها.. فتغلق دونها جميعاً.. وربما جاز لنا أن نقول بلغة العصر:

إن توجيهها إلى السماء.. إلى الفضاء نزع للفتيل..

وإن شئت قلت: محاولة لإلقاء القذيفة بعيدا عن العمران.. عن الإنسان..

وقبل أن تنفجر.. فإذا صدرت إليها الأوامر أن تهبط إلى الأرض بعد مدة [كما يفيد التعبير بثم] فإنها تواجه نفس المصير: تغلق الأبواب دونها..

(١) رواه مسلم فى: «رياض الصالحين برقم ٥٥٧ ـ وتذكر هنا ما روي «لا تسبوا الإبل فإن فيها رقوء الدم» أى تدفع فى الديات فيحقن بها الدم.

وإذن. . فلا مفر. . وبمقياس العدل. . لا مفر من عودتها إلى من لُعن. .

وذلك إن كان أهلاً لها . . وإلا عادت إلى من أنشأها أول مرة. .

وهو الذى بدأت من لسانه تلك الرحلة الطويلة. .

يحدث هذا كله. . حماية للإنسان من الكلمة النابية الجافية. . مما يفرض على المسلم. . على «العبد» ألا يخرج عن حدود وظيفته. . وأن يكون مطيعا. . لأمر سيده. . وإلا ذاق وبال أمره.

عزاء وسلوى:

والحديث فى جملته عزاء وسلوى لضحايا اللاعنين. . الضحايا. . الغافلون. . والغافلات. . فى البيوت. . والذين يتخذهم اللاعنون غرضا. . ولكن الله تعالى مخلف ظنهم السوء:

فلئن كان المظلومون كالنخالة أو الردة. . يعزلها الظالمون الذين يريدون الاستئثار بالحياة. .

فإن من العقاب المعجل. . أن هؤلاء الظالمين سوف يعودون إلى ذات النخالة والردة التي عزلوها. . يعودون إليها بأمر الطبيب. . بعد أن يداهمهم الداء العضال. .

وهكذا يحكم طبيب الأطباء سبحانه. . يحكم بتدبير الظروف التى تحوج الظالم. . إلى نفس المظلوم. . عقابا معجلا !!.

فليحذر الذين يخالفون عن أمره

ولا يكفى أن ينزه لسانه عن منكر القول وزوره. . بل عليه أن يرطب لسانه دائما بالجميل من القول. .

وإذا أغلقت أبواب السماء دون الكلمة الخبيثة. . فإن أبواب السماء تفتح لتستقبل الطيب من القول والصالح من العمل:

﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾

وعلى المسلم أن ينتقي أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر. . والجزاء من بعد:

النجاح فى الدنيا.. والفلاح فى الآخرة..

وذلك أليق بالمسلم الذي عاهد ربه بحكم استسلامه له.. ألا يؤذى أحدا..

أما الذى تورط فى اللعن:

فإنه قاتل.. [ولعن المسلم كقتله]

ثم هو يوم القيامة مهدر القيمة

فا للعانون [لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة]

ذلك بأنهم آثروا ما يناقض إسلامهم..

فلعنوا بما قالوا..

والذى قالوه.. عادة غير مسلَّمة..

بل إنها غير مسلمة!!

●●●●●

روى البخارى ومسلم من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال:

بينما نحن فى المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاءه أعرابى.. فقام يبول فى المسجد. فقال أصحاب رسول الله ﷺ. مه .مه. [كلمة زجر] مرتين. فقال رسول الله ﷺ: «دعوه».

فتركوه حتي بال.

ثم إن رسول الله ﷺ دعاه. فقال له: «**إن هذه المساجد لا تصلح لشىء من هذا البول. ولا القذر». إنما هى لذكر الله عز وجل. والصلاة. وقراءة القرآن.**

قال: فأمر رجلا من القوم فجاء بدلو من ماء فشنه عليه.

وفى رواية: «**دعوه. فإنما بعثتم ميسرين.. ولم تبعثوا معسرين**»[1].

تمهيد

للمسجد مكانته المرموقة فى قلوب المسلمين: فمن فوق مئذنته.. إعلام بالإسلام. ومن فوق منبره. تهذيب للأخلاق.

وبالصفوف المتراصة خلف الإمام.. تبدو أمة الإسلام قوة يغيظ الله بها أعداءها..

ولأنه كذلك.. فلا تعجب إذا رأيت هذه الهجمة الغاضبة على رجل يُدنس حرمة المسجد.. هكذا جهارا نهارا.. وعلى مرأ ومسمع من رسول الله ﷺ.

أجل لقد كان لانفعال الصحابة ما يسوغه.. كيف وهم الأطهار الذين وصفهم ربهم فقال:

﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا﴾

إنهم لا يتطهرون فقــــط.. وإنمـــا هم «يحبون» الطهارة التى صارت جزءا من طبيعتهم..

---

(١) متفق عليه. رواه مسلم رقم ٢٨٥ كتاب الطهارة وفى البخارى بألفاظ قريبة.

وأذن.. فكيف يطيق الطبع الطهور.. هذا الخطأ الفاحش: التبول..

فى أطهر مكان على ظهر الأرض وهو المسجد..

ذلك ما لم يستطيعوا عليه صبرا..

إن للمسجد جماله وله كذلك جلاله.. ومن جماله أن يكون نظيفا ومن جلاله أن نحفظ عليه هيبته .

من أدب الصحابة

ولكن.. مع ظهور المنكر.. وبغضه.. إلا أن ذلك لم يعطهم حق الخروج على قواعد الأدب فى حضرة الرسول ﷺ .. فلم يزيدوا علي كلمة الزجر: مه.. والتى قالوها مرتين.. تعبيرا عن إنكارهم..

ثم تركوا حسم القضية للرسول ﷺ..

والذى أمسك بزمام المبادرة.. بالحل العملي الذى استنفر الصحابة ليتعاونوا على حل المشكلة.. بدل الوقوف عند حد الدور السلبى.. المتمثل فى الإنكار.. والتشنيع.. الذى يُوسع الهوة بين المطيعين والعصاة

موقف الداعية :

لقد كان المسجد ساحة مباركة من ساحات التربية

ومن خلال الدروس العملية فيه.. صاغ الرسول صحابته على تقوى من الله ورضوان

ولقد كان هناك درس أهم من درس.. وموقف أغنى من موقف:

فهذا صحابى يصلى مسرعا.. فيقول له: صل.. فإنك لم تصل..

لكن مشكلة اليوم أكثر تعقيدا.. ومن ثم لابد أن تواجه بما تستأهله من بُعد نظر.

●●●●●

مسوغات اللين

وإذا كانت الحكمة لازمة في كل المواقف.. فهى اليوم ألزم لأسباب منها: أولا: طبيعة رسالة القوم.. وهى:

أنهم مبشرون.. لا منفرون

وثانيا: طبيعة الأعرابى نفسه.. وما جبلت عليه من جفاء. وإذن.. فالحكمة قاضية بمحاكمته بمقياس من الأعرابية إن صح التعبير.. لا بمقياس الحضارة التى فيها يعيشون..

إن الأدباء يرفضون أن يحاكم أديب إلا بميزان عصره وبنفس القوة نقول:

إن الأعراب [أجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله]

ولابد من أخذ ذلك فى الاعتبار عند الحكم لهم.. أو عليهم..

وحرام أن يلام عالم.. علىّ ذنب اقترفه فى شبابه.. بعدَما دخل بالشيخوخة فى عالم آخر..

ثالثا: طبيعة الرسول ﷺ: إنه ليس فقط قائدا عسكريا..

إن من هدف القائد العسكرى: إذلال العدو.. ولكن الرسول: هاد.. وحاد على الطريق:

لايقول: ألا تعلو على وائتونى خاضعين..

ولكنه يقول: ﴿**وائتونى مسلمين**﴾

إن القائد يقول: ائتونى مستسلمين..

لكن الرسول يقول: ائتونى.. مسلمين.

قاعدة الانطلاق

انطلق ﷺ من قاعدة قرآنية هى:

﴿أدع إلى سبيل ربك بالحكمة..﴾

أى: بالرفق.. آخذا بيد المخطئ إلى بر الأمان..

إنه يتدخل لفض الاشتباك بين الرفاق.. وحسم القضية لصالح الدعوة.. لا لحساب المزاج الشخصى..

وإذا بدت المشكلة فى تقدير الصحابة جبلا. فقد بقيت باللين أملا..

أملا يجيش به قلب الداعية.. تهدأ به الأعصاب.. ثم تضيق مسافة الخلف..

خطة العلاج

كان لعلاج الرسول ﷺ خطته الرامية إلى ما يلى:

١ـ تهدئة خواطر الصحابة المتوترة الثائرة ثورة لها ما يسوغها لأن المنكر الواقع.. ماثل بين أيديهم.. ولم يستنتجوه..

٢ ـ تعليم الرجل أين الخطأ.. وأين الصواب..

٣ ـ الدعوة إلى إزالة آثار العدوان.. حتى إذا توارت بالحجاب هدأت النفوس.. واستقرت بلابل الأفكار فى الرءوس!

ولتحقيق هذه الأهداف كان منه ﷺ ما يلى:

أ ـ أمر بأن يُترك الرجل حتى يُتم بولته:

حفاظا على صحته التى تتأثر لو أمسك.. فجأة..

ثم حفاظا على نظافة المسجد نفسه.. إذ إن الهجوم على الرجل من شأنه أن يُربكه.. ويحركه.. فتتسع دائرة النجاسة عندئذ..

ولعل مما يشير إلى هذا التعبير بحرف العطف «ثم» والتى تفيد التراخى..

ولما كان المسجد مفروشا بالحصى.. لابالسجاد. فقد كان كافيا أن تُزال النجاسة بذنوب من الماء.

وهو ما تكفل الصحابة أنفسهم.. والذين استجابوا طائعين للتوجيه النبوى السديد.. مستوعبين الدرس الذى يفيد.

يفيد: عدم الاقتصار على الانكار باللسان.. وإنما لابد أن نعزز ذلك بحركة عملية إنسانية نتعاون فيها جميعا على إزالة المنكر.. وإعانة العاصى على أن يعود إلينا سالما..

بين التغيير.. والإزالة

كانت للرسول ﷺ تلك الوقفة الرحيمة مع الرجل:

فقد أعلمه أن المساجد لم تبن لهذا.. ولا لما يُستقذر من القوْل أو الفعل.

وإنما هى:

للذكر... والصلاة... وقراءة القرآن.

ويعنى ذلك: أننا مطالبون بتغير المنكر.. لا مجرد إزالته..

تغييره.. وبالحكمة.

ثم نقيم على أنقاضه بناء جديدا... مفيدا..

إعطاء القوس باريها

يقول الشاعر العربى:

يا بارى القوس بريا ليس يحسنه ـ لا تظلم القوس: أعط القوس باربها!!

وقد أعطيت القوسُ باريها.. ﷺ.. فكان ما كان. ونتصور الآن مضاعفات هذا الحماس من قِبَل الصحابة لو انفردوا بالحكم.. ولم يكن ﷺ موجودا عندئذ؟!!.

والجواب: سوف تتعقد المشكلة عمقاً واتساعا..

لكن وجود الخِبرة والسنّ.. مع الطاقة والحماس.. تَوَّج الموقف أخيرا بما يُرضى الحق:

أ ـ فوجود الرسول ﷺ بشخصه مهم.

فالرجل قد لا يُصغى إلى زميله.. أو من يسامته فى مركزه الاجتماعى... لكنه يستمع راضيا إلى الرائد الذى لا يكذب أهله.

ب ـ ثم إن فى منطق الرسول ﷺ ما يشفى الغليل والعليل. وتأمل منطقة الحصيف هنا.

فلم يقتصر ﷺ على قوله: «إنما بعثتم ميسرين» ولكنه زاد: «ولم تبعثوا معسرين».

إنها الحكمة البالغة والتى تجىء فى أوانها.

ذلك بأن الرجل قد يكون فى دعوته مخلصا.. دائبا..

لكنه قد يرتكب فى دعوته أخطاء يرجو غفرانها لما يقدمه فى حقل الدعوة من حسنات لعلها أن تكون له شفيعا.

وهذه الجملة «ولم تبعثوا معسِّرين» تحاصر هذا النموذج ليكون الإحسان رائده.. حتى يتخلص من عيوبه التى يريد منا التغاضى عنها..

قال شراح الحديث:

« وإنما أردف ﷺ أمره بالتيسير نهْيه عن التعسير.. مع أن الأمر بالشىء يستتبع النهى عن ضده..

«فالأمر بالتيسير يترتب عليه النهى عن التعسير».

ولقد كان ذلك. تقوية وتوكيدا.. حتى لا يَدَع لمتنطِّع عذرا على أنه لو اقتصر على التيسير لتحقق امتثال الأمر مرة واحدة وإن عسَّر مرارا.

فلما قرنه بالنهى عن التعسير. فُهم أن المراد. المداومة على التيسير.

الداعية.. صائد ماهر:

فإذا كانوا يقولون: إذا أردت أن تقنع رجلا.. فالجأ إلى عقله.. وإذا أردت أن تقنع امرأة فالجأ إلى قلبها.. أما إذا أردت أن تقنع الجماهير.. فأيقظ غرائزها.. وإذا كانوا يقولون ذلك... فإن للإسلام وسيلته اللائقة به: والتى تمثلت فى موقفه ﷺ.. والذى أقنع به عقل الرجل.. وقلبه معا. بل وعقول الصحابة وقلوبهم أيضاً.. فصار الموقف درسا فى الدعوة والتربية.. يُحتذى!.. على نحو صار به الرجل خلقا آخر.

يستقبل التوجيه النبوى السديد بكل منافذ المعرفة فيه.. فلا يعود إلى مثل ما فعل أبدا: لقد بدأ يفعل ما لم يكن يفعل من الخير.. ثم ترك ما كان يفعل من شر.. فى صحبة إحساس بأنه صار أحسن من الأمس.. حتى يصير الخير عادة له.. بل شرعة ومنهاجا فمادامت تدعو إلى الحق.. فلا تدعو إليه بالقوة... ومادمت تدعو إلى

السلام.. فلا تدعو إليه بالعنف.. وكيف تدعو باسم الإسلام.. إلى محاربة المسلمين؟

ولقد بدأ للصحابة رضوان الله عليهم ما لم يكونوا يحتسبون: الأعرابى.. البسيط.. يقف معهم فى الصف المؤمن راشدا.. ومن ثم زاد المخلصون العاملون به واحدا.

ويالها من سعادة أن يهدى الله بك رجلا.. يضع يده فى يدك لتواجها معاصُوَر الانحراف مجتمعين. إن متعة الوصول إلى هداية ضالٍّ لا تعادلها متعة: ورحم الله مالك بن دينار:

دخل عليه لص ذات مساء.. فلما لم يجد اللص شيئا.. هم بالخروج.. فقال له مالك:

إذا لم تجد شيئا من الدنيا عندنا.. فهل لك إلى شىء من الآخرة؟!.

توضأ.. وصلِ ركعتين.

ثم صحبه إلى المسجد.. فلما سأله الصحاب عن ضيفه الجديد قال: ضيف جاء ليسرقنا.. فسرقناه!.

ونجح مالك بن دينار حين أضاف إلى الدعوة لصا.. ذكيا.. قويا.. جريئا على الباطل ليكون ليصير بالحكمة والرفق جنديا فى كيتبة الدعوة يرصد ذكاءه.. وجرأته.. لحساب الحق.. بعد أن كانت بالأمس فى خدمة الشيطان!.

وأخيراً.. ما أجمل ما يطالعنا به الموقف من دروس:

١ ـ الجاهل.. فى حاجة إلى التعليم.. لا إلى التجريم.

٢ ـ وسيلة الكلام.. قد لا تجدى فى إصلاح الخطأ.. ولابد من المبادرة العمليه لإصلاح ما أفسده الجهل.. وهذه المبادرة المتمثلة فيما جاءت به الرواية الأخرى. عن أبى هريرة رضى الله عنه.

« دعوه. وأريقوا على بوله سجلا من ماء. أو ذنوبا من ماء».

٣ ـ التيسير سمة الداعية لا التعسير.. والتبشير.. وليس التنفير.

٤ ـ قوله ﷺ: «**إنما بعثتم**» دليل على أن التيسير رسالة بعثوا هم وجنّدوا لإبلاغها.. فهم مسؤولون عما ولُّوا.

٥ ـ كما يقول بعض المحللين:

«الإسلام يعالج بالمرهم... لا بالمشرط».

٦ ـ الإسلام لا يهز المشكلة بالإنفعال ثم تبقى مكانها.. إنه لا يهزها.. ولكنه يحركها فى اتجاه الحل الصحيح.. المريح.

٧ ـ تقدير المستوى العقلى للمدعو:

يقول جابر بن سليم رضى الله عنه:

«رأيته ﷺ بين أصحابه متميزا. موقَّرا يصدرون عنه فَعَرفْتُه..

فقلت: أأنت رسول الله؟

فقال: نعم.. أنا رسول الله.

فقلت: وعليك السلام يارسول الله. فقال:

لا تقل هكذا.. ولكن قل:

السلام عليك.. فإن الأولى تحية الموتى.

ثم قال الرجل: أنت رسول الله؟

فقال للأعرابى:

أنا رسول الله الذى إذا أصابك ضُر فدعوته.. كشف عنك وإذا أصابك عام ـ جدب ـ فدعوته.. أنبتها لك.

وإذا كنت بأرضٍ قفر.. فضلت راحلتك.. ردها عليك.

وتأمل بساطة الجواب الذى نأت به بساطته عن تعقيدات الفلاسفة.. مكتفيا بالتصحيح العابر.. والمعلّل.. لمّا أخطأ الرجل فى صيغة التحية.

ثم ما كان من واقعيته ﷺ حين حاكم الأعرابى إلى واقعة هو راجعا به إلى الله عز

وجل والذى كان معه فى كل نازلة ألمت به.. فحرر عقله من الخرافة.. ثم وقف به على الصراط المستقيم.. ليصل بعون الله تعالى إلى ما يريد.

حاجة الأمة إلى التطبيق

وأمتنا فى حاجة إلى أن تتعلق همتها بالجانب العملى من الإسلام: كان سُحنون «عبدُ السلام بن سعيد التنوخى. عالمُ المغرب» كان يقول:

كنت إذا سألت «ابن القاسم»[1]. «وهو عالم مصر فى زمانه» كان يقول لى:

يا سُحنون أنت فارغ!!.

إنى لأحس فى رأسى دويا كدوىّ الرحى «من قيام الليل».

وكان يقول دائما:

اتقوا الله.

فإنّ قليل هذا الأمر «وهو العلم» مع تقوى الله كثير.. وكثيره.. دون تقوى الله.. قليل.

وكم ذا بمصر اليوم من تلاميذ «عبد الرحمن بن القاسم» ثم إلى جواره طالب العلم.. لا يسأله، ولكنه يسأل عبد المعين.. المحتاج إلى مُعين.

أما سُحنون.. نابغةُ المغرب.. وعالمها.. فيأتى من المغرب.. إلى مصر.. ليأخذ العلم عن ابن القاسم المصرى..

وكم ذا بمصر من المضحكات ولكـنه ضحـــك كالبكاء.

●●●●●

(١) عبد الرحمن بن القاسم.

من آثار الحكمة

ولقد كان من آثار هذه الحكمة النبوية أن وعاها سلفنا الصالح.. فلم يقابلوا النار بالنار.. ولا التيار بالتيار.

وإنما استوعبوا مواقف الانفعال.. فكان الدرسُ المفيدُ الباقى عبر الأجيال يعلم الدعاة ما للرفق والحكمة من آثار ذهبت بما للشدة من آصار:

ذهب رجل إلى طاووس يطلب منه العلم.. ولدى الباب.. وجد شيخا ذا لحية شهباء فسأله: أنت طاووس.. فقال: لا.. أنا ولده؟

فقال التلميذ المشاكس:

إذن.. فقد خرِف أبوك!!.

فقال: لا.. إن العالم لا يَخْرَف!.

وهكذا:

وقبل أن يدخل إلى طاووس لقنه والده.

درسا فى العلم.

ودرسا فى الحلم.

أما درس العلم فهو:

أن العالم يشيب.. فَتقْوى فى قلبه ملكة العلم.

أما الحلم فإنه لم يشتبك معه فى شجار نظير منطقة الغشوم.. فلما دخل على طاووس قال له:

إن شئت علمتُك القرآن.. والتوراه.. والإنجيل.. ثم علمه موعظة هى أساس الحياة.

إن يُحسن صلته بخالقه أولاً، ثم بالناس ثانياً.

أ ـ خف الله خوفاً . . لا تخافُ شيئا مثله .

ب ـ وارجُه رجاءً أشد من خوفك .

جـ ـ ثم أحب للناس ما تحب لنفسك .

ولئن عاد التلميذ المشاكس بمزيد من دروس العلم النظرى . . فقد كان الدرس العمليّ هنا أكبرَ وأعظم . بما تلقاه من ثمرات هذا العلم النظرى . . وهو ما نفتقده اليوم . . فلا نجدُه .

لقد كان الدرس العملى هو :

ما بداله من حلم الولد، وحكمة الوالد . . ولمثل هذا فليعمل العاملون .

أما بعد :

فقد ذكرت بعض الروايات أن الرجل الذى تبول فى المسجد قال لما سمع ما قال الرسول ردعا لصاحبه . اللهم اغفر لى ومحمد ولا تشرك معنا أحدًا ! ! .

لقد رأى الرسول ـ مع أنهم على الحق ـ يقف إلى جانبه . . فكان هذا التقدير . . وكانت طاقة الغضب التى عبر عنها بأن يختص الله ومحمدا بالمغفرة دون البشر جميعا وفى مقدمتهم هؤلاء الذين لم يقدروا ظروفه الصعبة .

●●●●●

من شؤم الكبر

عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه:

أن رجلا أكل عند رسول الله ﷺ بشماله.. فقال له: «**كل بيمينك**». قال: لا أستطيع!.

قال: لا أستطعت مامنعه إلا الكبر.

قال: فما رفعها إلى فيه.

تمهيد:

لا يكفى أن يملك الفلاّح من البذور أشتاتا.. لَتخْرج من بين يديه نباتا. ولا يكفى أن يضرب السَّدَّ بالمسحاة.. ليسلك الماء ينابيع فى الأرض. لا يكفى أن يضرب مرّة.. لتصبح الأرض مخضرة!.

إنه مكلف قبل ذلك أن يعرف نوع البذور.. وطبيعة الأرض.. وفنَّ التوقيت.. وصولا إلى وفرة النتاج. وجودته أيضا.. وكذلك الداعية:

فهو يواجه أرض النفس بمثل هذا الوعى الكاشف وعلى سبيل المثال:

إن مواجهة المشرك. تعْنِى أنك أمام أرض بكر.. قاحلة.. وإنك من الكتابى حيال أرض فيها أعشاب.. وطفيليات.. ضاربة الجذور.. ومن ثم.. كانت أسلحة المواجهة مختلفة.. متباينة..

منطلق الداعية:

وإذن.. فقاعدة انطلاق أطباء الأرواح هى هى قاعدة الإنطلاق. لدى هذا الفلاح وأيضا لدى أطباء الجراح.

فالداعية عليه أن يشخص العلة.. ثم يردَّها إلى أسبابها. وعليه أن يسأل نفسه. ماذا وراء المعصية من دوافع؟؟ هل هو دافع الشهوة.. أم دافع الشبهة.. أم دافع الشهرة؟!!. هل هو الجهل المانع من الرؤية الكاشفة.

أم هو الكبر المانع من الانقياد للحق بعدما تبين؟.

ولكل دافع دواؤه المناسب.. لقد عصى آدم ربه فغوى.. ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى. وعصى إبليس ربه أيضا.. لكنه كـــان عصيان المستكبر.. فكان حتفه فى عصيانه.

لقد اتحدث المعصية فى مرأى العين.. ولكن طبيعة الدافع هى التى تُعطى الموقف معناه الحقيقى.

وقد يأخذ الجهل صورة الاندفاع نحو المعصية.. وقد يرتكبها من يعرف عقباها.. لكن الشهوة غالبه.. والهوى متحكم.. إن مثل هذا العاصى ليُقْدِم على المعصية.. مضطرا.. وإذن: فدواؤه الرفق.

وإذا كان المستكبر يتحداك... فإن نفس الجاهل المضطر.. تقف إلى جانبك: تلومه.. معك.

وعلينا أن نستثمر هذا المعنى لصالحه.. وصالح الدعوة.

[من دروس الموقف]

إن من عوامل نجاح الداعية:

أولاً: الإحساس الصادق بحجم المشكلة.. وبمخاطرها.

ثانياً: ثم العمل على حلها.

ثالثاً: على أن يجىء الحل فى أوانه المناسب.. وعل النحو المناسب أيضاً.

وهكذا كان ﷺ.

إن الداعية هنا يتدخل.. وبرفق.. حتى فيما كان من الأمور الشخصية البحتة.. كطريقة الأكل.

ولا يُعَدْ ذلك تدخلا فى حياة الآخرين الخاصة.. مادام التوجيه محمولا على أو فى معانى الحكمة.. ومادام كذلك وقوفا بالمسلم عند حدود الالتزام بشعار الدين الذى ارتضاه. ودخل حماه.. مختارا.. إننا أمة الوسط.. وأمة اليمين.. وإذا كان الشيطان

يأكل بشماله.. فنحن مأمورون بالتيامن.. استجلاء بالبركة.. واحتفاظاً بمكانتنا المكينة.. وسط الدائرة.. لا على حافتها.. وإلا عَرَّضْنا أنفسنا للسقوط.

ولكن.. ما هى مظاهر الحكمة هنا:

أولاً: لم يذكر سلمة رضى الله عنه اسم الرجل.. فلم يكن من هدفه التجريح أو التشفى.. وإنما هى: العبرة التى يقدمها للأجيال.. لتختار لنفسها ما يحلو..

والناس يذهبون.. وينسون الأسماء.. وتبقى العبرة من بعدهم درسا لا ينسى.

وقد يُرضى الناقد غروره.. أحيانا.. بإعلان إسم العاصى.. فى نفس الوقت الذى قد تكون نفس العاصى اللوامة بدأت تستيقظ على خطئها.. وقد تَحمل صاحبها على عود حميد إلى الصف المؤمن..

وثانياً: كان أمام الرسول ﷺ أسلوبان لتغيير هذا المنكر: إيجابى.. وسلبى.

لقد كان من الممكن أن يقول للرجل:

لا تأكل بشمالك.. فالآكل بشماله أحمق مثلا.

إلا أنه ﷺ اختار الجانب الإيجابى فقال له: كل بيمينك.. مركزا على المطلوب بلا إحراج.. متجاوزا منطق التشهير.. الذى قد يحمل المخاطب على مواصلة العناد.. إن كل بنى آدم خطاء.. وتلك ظاهرة بشرية.. وواجبنا يبدأ بالوقوف إلى جانب المخطئ.. ليكون من خير الخطائين بالتوبة النصوح..

إنها لحظة قاسية حقا حين تواجه المخطئ بخطئه.. وعلانية. وإذن فلا تركز على العلة مباشرة.. لا تحاول أن تلمس السلك الكهربى المكشوف ومادام فى إمكانك.. وبطريق غير مباشر أن تقول فى مجتمع الشهوات: الزواج سبيل القرار والسعادة.. بدل الحملة الشعواء على المعرضين عنه والتى لا تعطى الناس دقيقا.

أرأيت إلى أسواقنا:

إن أقسى مايواجه التاجر هو: أن تواجهه بعيوب سلعته؛ لأن ذلك يعنى كسادها.. وبالتالى خسارته.

ومن أسواق المال إلى أسواق الرجال.. لتجد نفس المعنى: فأقسى.. بل أقصى ما يُغضبه المدعو أن تواجهه بعيوبه.. وعليك أن تلمِّح.. ولا تصرح.

إنك تقول رأيا ولا تكيلُ الشتائم.. تقول... ولا تكيل. ارفع صوتك.. لا سوطك.. وتبدو الحكمة النبوية مكتملة وافية بالغرض:

فالتشهير غير وارد.. ثقة بالمدعو.. أن يعود من قريب.. ثم الدقة فى اختيار الأسلوب الإيجابى المناسب.. عونا له على نفسه.. ومن ناحية أخرى فإن مجاملة العاصى وبالسكوت مرفوضة حتى لا يضع الداعية نفسه فى مكان حاضنة اليتيم التى تهدهده.. فقط.. لينام.

ولا يهمها أن يموت.. كما لا يهمها أن يحيا.

آخر الدواء الكى

وإذا كان الخطأ ظاهرة بشرية.. ينبغى أن نتعامل معها بما يعين على التخلص منها بالرفق. فإن الكبر ليس ظاهرة بشرية.. وإنما هو داء عضال ينبغى استئصاله وبعملية جراحية.. فلا تنفع فيه المسكنات.. ولا المضادات.

من أجل ذلك.. لمّا رفض الرجل الاستجابة لأمر الرسول ﷺ.. تغير الجواب الذى جاء رادعا.. شديد اللهجة.

لأن اللين فى هذه الحال مضر.. لأنه فى غير موضعه.

فوضع الندى فى موضع السيف مضر.. كوضع السيف فى موضع الندى !! وهذا ما فعله ﷺ.. عند ما دعا على الرجل.. لما امتنع عن الأكل باليمين.. فشُلت يده.. وإلى الأبد.

وقد يهجس فى الخيال تساؤل وجل:

ألم يكن العلاج شديدا.. وغير متوقع وخاصة من رسول « من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم».

والجواب:

أولاً: إن مصير الرجل هذا القاسى.. كان من شؤم كِبْره. وعلى نفسها جنت براقش وكان لابد أن يكون الكى آخر الدواء.. حتى لا تسرى عدوى الكبر إلى ملايين القلوب.. وحتى نحمى ملايين الأيدى مستقبلا.. من الشلل.

ثانياً: إن الطبيب الحاذق لا يَسأل المريض عن الدواء الذى يعجبه.. وإنما يفرض عليه الدواء المطلوب فرضا.. لأنه دواؤه.. الذى لا شفاء ـ بأمر الله تعالى ـ إلا به.

ولو سألت طفلا صغيرا مريضا عن رغبته لطلب قطعة من الحلوى.. ولكن شفاءه هناك.. فى الدواء المر.

ثالثاً: قد يقسو الداعية.. أحيانا.. ولكن ما رأيكم دام فضلكم فيما إذا جاء الربيع الطلق يختال ضاحكا.. إلى أرض خْصبة.. فاعترضته صخرة فعلاها.. وتجاوزها.. أو بيتا قائما فهوى بعماده.. ليعم الخصب .هل يلام على هذا؟.

من خصائص الداعية :

وتبدو خصائص الداعية ـ من خلال هذا الموقف ـ كما يجب أن تكون:

أ ـ فهو ليّن ـ ولكن فى غير ضعف.

مرِن.. مرونة تمكنّه من احتواء المدعو.. والوصول بالموعظة إلى قلبه.

وهو منطق الطبيعة من حولنا.

فلولا أن «اللبلاب» مرن.. طرى.. لما استطاع أن يتسلق الجدار.. ولما تكاثر فبدا جماله.

ولو كان صلبا.. لذبل.. وذهب جُفاء.

ب ـ وليس معنى ذلك نفى العتاب المر مطلقا:

بل هو.. أحيانا.. عينُ الحكمة ومغزاها، والداعية الناجح يدور مع الواقع، فى حالات الشدة.. يحمل الناس على الرخَص.. وفى الراحة.. يحملهم على العزيمة حملا..

فإن لم يفعل.. كان المللُ.. ثم الانقطاع. ثم يجد الداعية نفسه فى النهاية وحيدا.

إن من حولك بشرا.. وإذن.. فهناك آلام..

والآلام تعنى: الحاجة إلى الطبيب.. وأنت الطبيب أيها الداعية..

فتقدم وخذ بزمام المبادرة.. قبل أن تفوت الفرصة.. ثم لا تعود.

وإذا كان هذا دور الداعية.. فإن واجب الأمة الإسلامية هو: أن تأكل بيمينها.. أن تحذر مخالفة أمر الله ورسوله ﷺ..

ذلك بأن مخالفة أمرهما تعنى: أن يسلبهم النعم. ويضربهم بالنقم.. بسنة منه تعالى فى المستكبرين الذين أصاب اللهُ تعالى خططهم بالفشل.. وحركتهم بالشلل.

وبضدها تتميز الأشياء

وإذا كانت الأشياء، تتميز بأضدادها. فإننا نذكر هنا بالتقدير والإعزاز «سفينة» خادم رسول الله ﷺ:

لقد غيّر اسمه القديم.. بل حاول أن يمحوه من ذاكرته.. وذاكرة الناس الذين عرفوه به.. ولما سئل عن سبب ذلك قال رضى الله عنه. سمانى رسول الله ﷺ «سفينة» فلا أغيره.

وأين منه هذا الذى رفض أن يأكل بيمينه.. والذى لم يبق له الكبر ذرة من حياء.. وأين منه بخاصة ذلك الذى رفض أن يغير اسما سمّاه به أبوه.

أما بعد.. فما أقبح عقبى الاستكبار.

إن المستكبرمنتفخ.. بحيث يبدو أكبر من حجمه الطبيعى.. ومن ثم فهو مقطوع الصلة بالمجتمع الذى يعيش فيه..

وقد قالوا: إن المستكبر كالطائر.. كلما علا فى السماء.. كلما صغر حجمه!.

وقد يكون المغرور عالما.. يسمع صيته بأذنيه.. فيتعالى.. وقد يكون من عقابه المعجل أن يتفوق عليه تلميذه.. فتأتيه القذيفة من منطقة الأمان.. وسوف يعلم يوما هذه الحقيقة:

كم فى العُرس.. أبهى من العروس!!

●●●●●

الاستعداد للرحيل

عن أبى هريرة رضى الله عنه. أن رسول الله ﷺ قال:

بادروا بالأعمال سبعا: هل تنتظرون إلا فقرا منسيا.. أو غنى مطغيا.. أو مرضا مفسدا.. أو هَرَما مفندا

أو موتا مجهزا.. أو الدجال.. فشر غائب ينتظر.. أو الساعة.. فالساعة أدهى وأمر[1]].

فيما قرأته لابن المقفع تصويره غفلة الإنسان عن مصيره بمن تدلّى فى بئر.. فتعلق بغصن.. وعلى الغصن فأر يقرضه.. وفى عمق البئر وحشن فاغرفاه.. ثم وجد إلى جانبه عسلا.. فشغل به.. فقرض الفأر الغصن.. ليسقط غير مأسوف عليه فى فم الوحش المتربص..

والحديث الشريف تنبيه إلى مخاطر الطريق.. وتحذير من التورط فيها.. فالدنيا تضحك لنا.. ثم تُضحك منا غيرنا.. دنيا ذاهبة.. كاذبة.. من التفت إليها.. شغل.. فلم تكن له عزيمة فى عمل. ولا همة إلى الكمال.. ولا تضحية فى سبيل هذا الكمال.

وإنما يعيش المفتون بها لحظته الحاضره أسير لهاس.. بينما الخطر من بين يديه ومن خلفه.

عقبات الطريق :

والعقبات التى ترصد خطر الإنسان على الطريق.. والتى يجب أن يستعد لاقتحامها أو يوظف كل إمكاناته توظيفا سليما لينجو من مخاطرها هى: الفقر المنسى.. والغنى المطغى.. والمرض المفسد.. والهرم المُفند.. والموت المجهز.. ثم الدجال.. والساعة.

---

(١) رواه الترمذى وقال: حديث حسن غريب. وضعَّفه الألبانى.

والأسلحة التى يواجه بها المرء هذه الظروف الصعبه هى:

الأعمال الصالحة. التى يسارع المسلم إليها.. لتقف إلى جانبه فى ساعة العسرة.. قبل أن يسقط فى الامتحان.

إن سبعة أشياء.. قد تحيط بالإنسان.. فتحبط سعيه.... أو تصيبه بأذى.. وعليه منذ الآن أن يحذرها.. عاملا على تلافى آثارها متى حلّت بداره.

الفقر الذى يستغرق كل مشاعر الإنسان وقدراته.. فلا يفكر فى أبعد من أنفه.

والغنى الذى يجمد مشاعر الإنسان.. فلا يرى فى المرآه إلا نفسه فيطغى أن رآه استغنى.

والمرض الذى يفسد المزاج.. ولا يجعل للحياة طعما.. ثم الشيخوخة والتى يكون فيها الشيخ على ما قيل:

«يرجع حتى يكون مثل الصبيان.. بل هو أردأ من الصبيان؛ لأن الصبى لم يكن قد عقل فلا يدرى عن شىء. لكن هذا قد عقل. وفهم الأشياء. ثم رد إلى أرذل العمر. فيكون هذا أشد عليه.

ولذلك نجد أن الذين يردون إلى أرذل العمر. من كبار السن. يؤذون أهليهم أشد من إيذاء الصبيان. لأنهم كانوا قد عقلوا. وقد استعاذ النبى ﷺ من أن يرد إلى أرذل العمر»[1].

ثم حقيقة الموت التى ينبغى ألا تغيب عن البال.. وذلك الدجال الذى يكون مجيئه امتحانا عسيرا للإرادة.. والذى لا ينجو من كيده إلا من قدم لغده عملا صالحا.

ثم الساعة التى هى الإمتحان.. الذى يكرم المرء فيه أو يهان.

إيجابية الحديث الشريف

والحديث الشريف يعمق فى المسلم روح الإيجابية الفاعله.. بقدر ما يفرّبه من السلبية القاتله.

(١) البخارى (٢٨٢٢) كتاب الجهاد

فتصور هذه الهموم.. على جانبى الطريق.. لا ينبغى أن يقعد بالإنسان عن العمل.. والأمل.

وكما قال المربون:

لا ينبغى أن تنهزم النفس أمام كوارث الدنيا ومحنها.. لتتراجع هاربة إلى جحورها.. وإنما الذى يفرضه الإسلام علينا أن نثبت أمام أحداث الزمان.

وقد يدل المترفون بما يملكون وما ينفقون.. وقد يتمنى الضعفاء أن لو كانوا مثلهم كما قال إخوة لهم من قبل. « ياليت لنا مثل ما أوتى قارون».

ولكن من دواعى تجاوز هذا المأزق بنجاح أن نعلم أن الفقير ليس هو من يملك القليل.. وإنما هو: من يطلب الكثير.. ثم لا يغنيه هذا الكثير.

وقد علّمنا الرسول ﷺ أن الحياة أفضل من الموت ولو كانت حياة الكدح والمعاناة.

وإذن فتمنى زوالها تحت وطأة الحاجة عمل غير منطقى ولا مقبول.

سفينة النجاة

وواجبنا تنحية مشاعر الهوان.. ثم الإحساس بقيمة العمر وضرورة عمارته بالعمل الصالح.. الذى يصير عدة الإنسان إزاء ريب الزمان.

إن العمل الصالح إذن.. سبيل إلى الفلاح والنجاح.. وذلك قوله تعالى: **﴿وافعلوا الخير لعلكم تفلحون﴾**.

وإذا كان مهما أن تفعل الخير.. فأهم منه أن تحب من يفعل مثلك الخير.. ليصير الكل منظومة منسجمة ماضية على الصراط.

فلا يكفى أن تفعل الخير.. وأهم منه أن يخفق قلبك مع أبعد نجم فى السماء.. ولذلك يقول تعالى فى هذه الآية الكريمة: **﴿ لعلكم تفلحون﴾**.

فالرحلة شاقة.. ولن يصل بك مجرد العمل إلى الفلاح.. بل لابد من هذا القلب العاشق لعمل الخير.. يفعله كل إنسان فى أى مكان.. وزمان.

وما أجمل أن يعينك رجل غنى فى إتمام مشروعك الخيرى.. لكن الجمال كل

الجمال أن يهش لك.. وأن يقبل عليك.. سعيدا بقائك.. كأنك تعطيه الذى أنت سائله.

إن الناس كلهم يعملون.. ويتحركون.. ولكنهم فى نفس الوقت على ما قرر الحديث الشريف: «إنما الناس كالإبل المائة: لا تجد فيها راحلة».

وإذا كانت الإبل كلها تحمل الأثقال.. لكنها كلها لا تصلح للركوب عبر الأسفار البعيدة.

وإنما الصالح لذلك.. نوع متميز.. هو الراحلة. السهلة الميسرة.

وكذلك الذين يعملون الخير، فأعظمهم أجرا أولئك الذين يعملون.. ثم يحبون العاملين.

وفى حديث مع واحد من هذا النفر الكريم قال: [1]

إننى سعيد بمن جاء يستعين بى.. وأحسب أن له الفضل على.

وقلت له:

إن سرورك هذا أثقل فى ميزانك من المعونة نفسها.. لأنه يعنى وجود قلب فى صدرك.. هو تلك العين الثرة بالخير.

الخير: الذى تمارسه عملا.. بعد أن كان فى قلبك أملا.

●●●●●

(١) المحسن الكبير الحاج محسن محجوب.

أعمالنا فى الميزان

عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت:

سئل رسول الله ﷺ: أى الأعمال أحب إلى الله؟ قال: أدومها. وإن قلّ. وقال: اكفُلوا من الأعمال ما تطيقون.

وفى رواية «كان عمله ديمة»(1).

تمهيد:

كان القائد الرومانى عسكريا ناجحا.. حقق لبلاده انتصارات حاسمة.. ولما فُتن جنوده به قرروا أن يجعلوه ملكا.

وقبل المنصب على مضض قائلا لهم:

« لقد فقدتم قائدا ناجحا.. وصنعتم ملكا تعيسا؟!.

ويعنى ذلك:

أن الإنسان إذا قُلِّد عملا يناسبه.. ثم يطيقه.. ويحبه.. فذلك أجدى عليه وعلى أمته من عمل فوق طاقته.. غير منسجم مع قدراته الفردية.

والمهم دائما أن نسأل الإنسان:

كيف عملت.. لاكم عملت.. وإذا كان الكم مهما.. فإن الكيف أهم.

والحديث الشريف يرمى إلى أخذ المسلم بهذا المعنى:

لقد قام عبد الله الليل.. فترك قيام الليل.

أى أنه حمل نفسه فوق ما تطيق من الأعمال.. فكان ذلك المنبت لا أرضا قطع.. ولا ظهرا أبقى.

والمفروض أن يرفق المسلم بنفسه.. وكما يقولون:

---

(1) فتح البارى ج 11/ 294.

لابد من الراحة. . فإن قاطع مرحلتين فى مرحلة واحدة. . لابد أن يقف.

والرواحل إذا تعبت. . نهض الحادى ينشدها.

وإذن. . فأخذ الراحة فى الجد. . جد.

وغوص البحار فى طلب الدر. . صعود. . لا هبوط.

ومع أن السجود هُوِىّ. . إلا أن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد.

وقفات.. بين يدى الحديث الشريف :

راوية الحديث هى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها.

إنها المثال الفارد للزوجة الوفية الصالحة. فهى تقف مع زوجها. . قناة من قنوات العلم. . تنقل عنه ﷺ خير ما يقول. وأفضل مايعمل.

وصحيح أنها لم تنجب. . لكن ذلك لم يشكل قضية تستنزف طاقة البيت فى مراء. . وشقاق.

لم يكن لها أولاد. . نعم.

لكنها استطاعت بما نقلت من علم. أن تحيى أمما وأفرادا. . صاروا بالعلم لها أولادا.

ومن السؤال. . بدت رغبة الرجال فى مزيد من العمل. . سبيلا إلى تحقق الأمل.

لقد كانوا يسألون:

أ ـ متى كان ﷺ يقوم للصلاة؟.

ب ـ وكيف؟.

جـ ـ وكم كان يصلى.

د ـ وهل كان يخصّ بعض الأيام أو الأوقات بشىء؟.

هـ ـ ثم. . وأى الأعمال كانت أحب إليه وإلى الله تعالى؟ يسألون عن الأحب عن القمة وهو موضوع حديث اليوم.

ولاحظ أنهم يسألون عن الأعمال لا عن الأقوال.

ثم عن أحب الأعمال.. إلى الله.

وإذن: فهم جادون فى الطلب.. زاهدون فى أحب الأعمال إلى الناس.. مما يتنافس فيه طلاب الدنيا. ثم يسألون أهل الذكر.. وهو الرسول ﷺ.

ولئن كانوا فى أحاديثهم ينتقون أطايب الكلام.. كما ينتقون أطايب الثمر.. فإن لهم مع الأعمال شأنا آخر.

تلك الأعمال التى كانوا يفضلون منها النجائب.. والتى يستصحبونها فى سفر طويل.. وعلى كل ضامر.

وكان الجواب النبوى مقنعا. **«أدومها. وإن قل»**.

ونتساءل عن فقه الجواب.. ونسمع إلى الرد من علمائنا الذين فصّلوا الجواب تفصيلا.

أ ـ العامل المداوم: ملازم للخدمة. كثير الترداد. أما وغيره. كالمُعرض بعد الوصل فيندم.. ومن ثم فمن كثر تردده إلى باب الطاعة.. جوزى بالبر.

ب ـ بالدوام تتمكن ملكة الطاعة فى القلب. وتمتد فيه جذورها.

جـ ـ قد تفاجأ بالموت.. وإذن فما دمت مستمرا.. فسوف تكون ملاقاته وأنت فى طاعة الله فى مساقط المغيث عكس أولئك المبالغين المنقطعين والذين قد يفاجئهم الموت وهو فى حال الانقطاع.. فلا تنفعهم عندئذ لا الأحْجام.. ولا الأرقام.

●●●●●

إن فى المداومة على الطاعة معنى الإلحاح.. ودوام طرق الباب.. وفى الإلحاح معنى الرجاء والتذلل.. والشعور بالحاجة الملحة والمتجددة.. ورفض الركون إلى سعى الإنسان.

ولقد قال علماؤنا:

« إن المداومة على العمل المفضول أحب إلى الله تعالى من عمل يكون أفضل.. ثم ينقطع».

المهم أن تظل فى مربع الطاعة.. بعيدا عن عفن المعاصى.

أن تظل داخل البيت الآمن.. لا تتخذُه مهجورا.. فالدوام هو حجر الزاوية.

وإذا كَان إيمانك هو رصيدك فى بنك الحياة.. فإن هذا الرصيد لكى يتنامى.. لابد من «إيداعات» مستمرة.. وإلا تراجع الرصيد.

وهو المعنى الذى أشار إليه ابن مسعود رضى الله عنه فى قوله:

« ما ندمت على شىء ندمى على يوم غَربت شمسه. نقص فيه أجلى.. ولم يزدد فيه عملى».

المهم أن تبقى داخل البستان.. بعيدا عن المستنقع الآسن.

ومادمت داخل البستان.. فيستوى أن تكون أميره.. وأو أجيره فصاحب البستان وأجيره سيان.

كلاهما مستمتع بالظل.. والرائحة الطيبة.. والنسيم العليل.. فإذا تصورنا الإسلام بستانا وإنه لكذلك ـ فما دمت فى حماه.. فأنت مشمول بنعمة الله تعالى.. فى مساقط رحمته.. وقد تكون فيه أعمال كبار.. وأعمال صغار.. ولكن قليلا دائما.. خير من كثير منقطع.. قليلا تظل به داخل سور الحديقة.. ودائماً.. إن العاطفة الدينية قد تكون قوية غلابة.. ومن ثم يضبط الرسول ﷺ إيقاع السير.. بلا تفريط يقعد بالهمم.. وتنحل به العزائم.. ثم بلا إفراط.. يبدد الطاقة.

وإذا كان تقدم صاحب العمل القليل بطيئا.. فإنه على أى حال تقدم إلى أمام.. ينأى بك رويدا عن السيئات.. ليصل بك فى النهاية إلى الأعمال العظام التى قد تستعذبها يوما بعد ما رضتها على العمل الدائب.. الدائم.

الرائد المربى :

عندما سأله رجل أرهقه العمل.. عن عمل يتشبث به قال له، لايزال لسانك رطبا بذكر الله تعالى.

وفى الذكر طاقة دافعة إلى العمل.. ويكفى أنك تذكر ربك.. فيذكرك ربك سبحانه « فاذكرونى أذكركم».

وهذا هو معنى الكلف بالعمل.

أن تحبه.. بالإقبال عليه إقبال عاشق.. طوعا.. لا قدوم ضائق به زرعا.

وإذا بدأ الأمر تكليفا.. فحاول أن تتصوره تشريفا.. لتساعدك نفسك عليه.

وهكذا يوجه رسول الله ﷺ كثيرا من العاملين فى حقل الدعوة أن يحاولوا الكلف بعملهم.. أن يحبوه.. وسوف يساعدهم الحب على النهوض به.. أما الذين لا يحبونه.. فهم لذلك لا يطيقونه.

وفى حديث ابن مسعود رضى الله عنه قال[1]:

سألت النبى ﷺ: أى العمل أحب إلى الله. قال: «**الصلاة على وقتها**». قال: ثم أىّ؟. قال: « **بر الوالدين**» قال: ثم أى؟. قال: «**الجهاد فى سبيل الله**».

حدثنى بهن ولو استزدته لزادنى.

وأنت واجد فى هذا الموقف أمورا تستلفت النظر.

فلم يكتف الصحابى الجليل بالصلاة.. بلى سأل عن البر.. ولم يكتف به حتى جاءه الجواب بالجهاد.

وهو تلميذ واع.. ذكى.

وفوق هذا فهو مؤدب يعرف للأستاذ حقه.

فقد كف عن السؤال.. لما رأى مخايل الإرهاق على أستاذه ولو سأله لأجابه.

(١) أخرجه البخارى فتح البارى ٢/ ١٠ ـ ١١، كتاب الصلاة. باب فضل الصلاة لوقتها.

والذى يتصل بحديثنا هو أنه ﷺ قدم الصلاة والبر على الجهاد.. لما فى الأولين من توافر عنصر الدوام.. جاء فى فتح البارى.

«والذى يقتضيه النظر، تقديم الجهاد على جميع أعمال البدن. لأن فيه بذل النفس، إلا أن الصبر على المحافظة على الصلوات وأدائها فى كل أوقاتها. والمحافظة على بر الوالدين، أمر لازم متكرر ودائم، لا يصبر على مراقبة أمر الله فيه.. إلا الصديقون».

الرائد القدوة

ولقد كان ﷺ قدوتنا فى هذا الباب« فكان عمله ديمه» أى دائما.

كان عمله مفيدا.. يروى القلوب.. ويغذى الأرواح.

والديمة تعنى أنه كان: مطرا.. كان غيثا.

يعنى أنه:

١ ـ مستمر.

٢ ـ مع سكون.. ولا ضوضاء.

٣ ـ وبلا برق.

٤ ـ ولا رعد.

وكما أن الله تعالى يحيى الأرض بالمطر.. فإنه ـ بالطاعة ـ يحيى قلوب البشر!!

واجب المسلم:

أن يعمل للآخرة.. بقدر بقائه فيها.

وأن يعمل لله تعالى.. بقدر حاجته إليه.

وأن يعمل للنار.. بقدر خوفه منها.

فإن هو فعل.. كان من الأنس بالطاعة فى روضة من رياض الجنة.. بما نجاه الله تعالى من لجة الدنيا الصاخبة.. والتى يعيشها من هم أقوى منه.. وأغنى.. وأشهر.

ولكنهم ـ دونه ـ يعانون من آفة العصر وهى: الإحساس بالوحدة.

وكان غريبا أن يحس إنسان العصر بالوحدة.. بالغربة، وسط هذا الزحام.. وفى كل هذه الأضواء.!

من معالم التربية المحمدية

عن أبى ذر رضى الله عنه قال: قال لى رسول الله ﷺ:

«اتق الله حيثما كنت. وأتبع السيئة الحسنة تمحها. وخالق الناس بخلق حسن». رواه الترمذى. وحسنه. [فى الترغيب برقم ٣٩٧٠]

تمهيد

ذات يوم.. قال ﷺ لأبى ذر رضى الله عنه: « اعقل يا أبا ذر.. ما أقول لك بعدُ»(١).

وكررها ﷺ ستة أيام كاملة.. فلما كان اليوم السابع أوصاه.

ذلك بأن مهمة الداعية لا تنتهى بانتهاء النصيحة يلقيها.. بل لابد له قبل ذلك من تهيئة الجو لتلقيها.

تماما كالبذره.. لا تلقيها إلا فى تربة قد أعددتها للإنبات.. وإلا كان عملك عبثا.

ولاحظ كيف ينبه الرسول أبا ذر.. وعلى مدى أسبوع.. إلى أنه سيلقى عليه قولا ثقيلا.. إلى الحد الذى يطرح فيه أبو ذر من عقله وقلبه كل شاغل من مال و أهل وولد.. ليفرغ كل مداركه حتى تستقبل هذا الأمر الخطير.. الذى سوف يوافيه فى ميقات يوم معلوم.. ليتمكن فى قلبه وعقله.. ولا ينساه أبدا.

لقد كان لأبى ذر رضى الله عنه عنه منزلة رفيعة لدى رسول الله ﷺ: فكان يبتدئ أبا ذر بالحديث.. ويتفقده إذا غاب.

وإذن.. فلم يكن غريبا أن يتعهده بهذه العناية التى اختصه الرسول بها. وبالطريقة التى تبلغ بالمدعو إلى ما نرجوه له من كمال.. ليكون الموقف فى النهاية درسا للمربين.. وللدعاة.

خطوة إلى الوراء:

وهذه المنزلة التى اختص بها الرسول ﷺ أبا ذر رضى الله عنه.. تتقاضانا أن نعود

(١) مسند الإمام أحمد ٥/ ١٨١.

على بدء.. لنتعرف على الرجل منذ خطا نحو الإسلام خطوته الأولى.. والبداية دائما.. تشير إلى النهاية كما يقولون.

قبل إسلامه.. قال أبو ذر لأخيه. اركب.

أ ـ فاعلم لى علم هذا الرجل.

ب ـ واسمع من قوله.

وهى وصية تعنى: السؤال المستوعب.. بحثا عن كل دقيق وجليل يتعلق بالرسول ﷺ.. حتى «يعلم» علما صحيحا بالرسالة الجديدة.

ثم لا يكتفى بذلك.. بل لابد أن يسمع.. مباشرة منه.. ولا يكتفى بالسماع عنه.

التقرير :

ونفذ الأخ خطة أخيه حرفيا.. ثم قدم إليه التقرير التالى:

أ ـ إنه يأمر بمكارم الأخلاق.

ب ـ وكلامه.. ماهو بشعر.

جـ ـ وإنه أشبه الناس بك يا أبا ذر.

ليس الخبر كالعيان :

ولم يشف التقرير غليل أبى ذر.. فقرر أن يذهب بنفسه إليه ﷺ.

فلما رأى الرسول ﷺ حياه بتحية الإسلام.. صادرا عن فطرة سوية نقية.

فلما أعلن إسلامه. وصاه ﷺ أن يعود إلى قومه ويدعوهم إلى الإسلام.. حتى يظهر أمر الإسلام.

ولكنه غادر مجلس الرسول.. ثم صرخ بالشهادتين.. فضربه الطغاة كثيرا.

بداية الرحلة إلى الله :

سمع أبو ذر رضى الله عنه من روسل الله ﷺ قوله: «إن أقربكم منى مجلسا يوم القيامة من خرج من الدنيا كهئتة يوم تركته فيها».

ولقد صمم أبو ذر أن تظل حياته كما هى.. لا تتغير.. فوضع الدنيا فى كفه.. والتقرب من مجلس الرسول فى كفه.. ثم لم يتردد فى إيثار القرب منه ﷺ.

معارج الوصول :

لكن الوصول إلى هذا المجلس العظيم الا يتم إلا بأسباب.. فى مقدمتها الزهد.. والتواضع.. والسخاء.

عرض عليه عثمان رضى الله عنه أن يرسل إليه من إبل الصدقة ليشرب من لبنها.. وليتخذها ركوبا.. فاعتذر قائلا: أتكفينى غنيماتى.

ومن زهده فى المناصب ما روى من أنه:

أرسل رسولا إلى صديق له تولى إمارة فى العراق قال له:

أبلغه السلام. وقل له:

إن أبا ذر يقول لك:

إنا نتأكل الثمر. وتشرب الماء. ونعيش كما تعيش.

فبكى صديقه بكاء شديدا.

وأما عن تواضعه، فقد كان له مملوك..

فلم يطق أن يظل «عبدا» فحرره.. ليصير فقط خادما.. لقد أبى له إحساسه بكرامة الإنسان أن يراه عبدا.. وفضل أن يكون مثله إنسانا.

وإذا يستمد غيره من طلاب الدنيا أبهتهم من إذلال الآخرين.. فإنه كمسلم حر.. متعته أن يعيش مع الأحرار.. لتكون الحياة أجمل مذاقا.

وأما عن سخائه، فقد كان راتبه أربعة آلاف فى العام.. فكان يعطى الخادم راتب العام فى أوله.. ثم يتصدق بالباقى.

لقد أدار ظهره للدنيا ثم استقبل الآخرة بهذه الخلال.. وفى خياله من مشاهد الآخرة. صحبته للرسول ﷺ هناك.. فى جنات عدن.

وبهذه الخلال استطاع التأثير فى قومه. . حتى أسلم نصفهم على يديه.

ولهذا أيضا. . أختصه الرسول بمزيد من الحب والتقدير. . كان أحق به. . وكان أهله.

من دروس الموقف :

إن بعض الدعاة اليوم. . يتسرعون فى عرض قضاياهم.

والنتيجة:

إنها لا تنضج لا فى ذهن المتلقى. . ولا فى قلبه. . ومن ثم لا تكون صالحة للهضم. . ويخسر الجسم عصارتها الحية التى كان من الممكن الإفادة منها لو أنها تخلفت فكانت كائنا سويا.

ومن هؤلاء. من يدعون غيرهم. . خروجا من المسئولية، أو طلبا لجزيل الثواب.

ومنهم الذين يعرضون القضية عرضا فقهيا مجردا لا يشعر فيه المدعو أن الداعى يبتغى مصلحته.

وقد يعرض آخرون بضاعتهم استعلاء. . صادرا عن شعور بأنهم فى الموقف الأفضل. ولكن موقف الداعية أهم من ذلك. . كما يفهم من موقفه ﷺ من أبى ذر رضى الله عنه.

ويتمثل ذلك فى محاولة تغيير المدعو من الداخل. . على أن يكون الزمن جزءا من العلاج.

وفى تاريخنا المعاصر تجربة تؤكد أن المؤسسة التربوية قبل المؤسسات العسكرية والاقتصادية. . لأنها صاحبة النَّفس الطويل فى تغيير المفاهيم والمشاعر. . وعندما ضربت «هيروشيما» بالقنبلة الذرية. . لم تلجأ اليابان إلى تغيير اللافتات. . لكنها عادت إلى الجذور. . إلى سياسة النَّفس الطويل. . فقــررت إعـــادة النظر فى مناهج التعليم وطرق التربية. . وصولا إلى دم جديد. . يجرى فى شرايين الأمة طاقة بانيه وقد كان.

مراحل الطريق :

يحدد الحديث الشريف مراحل الطريق الواصل بالمسلم إلى ثمرات التقوى:

أولا: تقوى الله تعالى. . والتى تأخذ مركز الصدارة فى سلم الأولويات.

وثانياً: حق النفس. . والذى يبدو فى ضرورة الإسراع إلى ما يصلح الفساد الحادث بالمعصية. . وذلك بالتوبة النصوح. فليس المتقى ملاكا يمشى على الأرض. . وإنما هو بشر.

يخطئ ويصيب. . وكل بنى آدم خطاء. . ولكن. . كيف نغسل بالتوبة خطايانا؟

وثالثاً: حق المجتمع الإسلامى فى التعامل معه بقانون الإسلام الأخلاقى.

أهمية التقوى:

كانت التقوى قضية سلفنا الصالح. . رضوان الله عليهم. . وكان الاهتمام بها صادرا عن فهم عميق لطبيعتها.

أ ـ فمن نسيجها: الإيمان بالغيب.

والإيمان بالغيب يعنى الإيمان بأخطر العقائد فى الإسلام، بالجنة. . والنار. . والثواب والعقاب.

ب ـ ثم هى حركة اجتماعية بانية. . تجعل من المتقى خلية نحل ينفق من جيبه. . ومن قلبه. . فى السراء والضراء.

من أجل ذلك كانت يقظتهم دائمة. . حتى لا يخرجوا من دائرة التقوى. . فى حركة دائبة يتحسسون موقعهم منها. . جاء رجل إلى حذيفة رضى الله عنه خائفا أن يكون منافقا.

فقال له حذيفة ـ وهو المختص بمعرفة الألغام المنبثة فى طريق الإسلام ـ قال له:

تصلى إذا خلوت، وتستغفر إذا أذنبت، قال: نعم.

فقال له:

إذهب فما جعلك الله منافقا.

اتساع معنى التقوى:

ويمكن للمسلم أن يكون متقيا. . فى أى موقع.

فالمهندس.. سبحته زاويته.

والفلاح.. سبحته فأسه.

وقائد السيارة.. سبحته عجلته.

والعالم.. سبحته قلمه..

وإذا كانوا يقولون: إن التاج جميل.. وهو على رأس الملك أجمل.. فإنا نقول: إن معنى التقوى جميل ولكنها من القادرين الأغنياء أجمل.. وأكمل.

وذلك لما يترتب على التزام الصفوة من آثار عظام، ولك أن تتصور ما يمكن أن يحدث عندما يكون رائد القوم متقيا يخاف الله.

لقد رفض أحد القياديين مصافحة امرأة سيئة السمعة، ورفض آخر مداعبة تاجر مشبوه.

ورفض الأول ترشيح وكيل وزارته إلى رتبه أعلى، لأنه ألبسه المعطف يوما.. بدلا من الحاجب.

لقد كانت خشية الله تعالى تملأ كيانه.. فكان وقافا عند الحق.. متقيا الشبهات.. استبراء لدينه وعرضه.

وإذا يسوِّل الشيطان لبعض القادرين أن يغتروا.. فإن الواقع الصارم يقول لهم: اتقوا الله.

وإذا زين لكم الغرور أنكم تستطيعون تحريك العالم «برافعه» هى وظيفتكم.. فاعلموا أنه لابد لهذه الرافعة من أرض صلبة ترتكز عليها.. وهى : التقوى.

وإذا كان العالم أحوج الناس إلى العلم ـ كما قال ابن عيينة لأن الخطأ منه أقبح.

إذا كان الأمر كذلك.. فإنا نقول:

إن أحوج الناس إلى التقوى هم أصحاب الجاه.. على قدر ما يملكون من سلطة يستطيعون بها التحكم فى مسير الحياة.. وما يترتب على ذلك من الآثار.. سلبا وإيجابا.

●●●●●

أهمية الإسراع إلى التوبة

والإسراع إلى التوبة واجب المذنب حيال نفسه.. وهو المستفيد الأول بهذه العودة التى يصلح بها ما أفسد.

وإذ يقول ﷺ لأبى ذر فى وصية أخرى. «وإذا أسأت فأحسن..». فإن وصية اليوم تضيف إلى ذلك: أهمية الاتباع.. أعنى الإسراع. ذلك بأنك قد تخطئ.. ثم تسكت أو تسكن إلى الخطأ. فينتهزها الشيطان فرصة للوسوسة التى سوف تترك آثارها لديك.. وأنت فى أضعف أحوالك.

فإذا كان الخطأ مع صديق.. أو زوج.. فسارع بالحسنة جنديا ترسله من لدنك ليمحو آثار ذلك.. قبل أن يتدخل نمام.. فيوسع الخرق.. على الراقع.

وكذلك فعل أبو بكر رضى الله عنه. لقد وجه إلى رجل كلمة أغضبته.. وعلى الفور.. طالب الصدّيق ذلك الرجل أن يرد عليه بمثلها.. وفى نفس الموقف.

وإذا رفض الرجل ذلك الاقتراح.. لكن يبقى الدرس فى أهمية العود القريب.. إلى الحق.

إن الله تعالى يقول للعاصى: لا تفعل.. ولكن الشيطان دعاه.. فأطاعه.. فأخذه الشيطان من الله سبحانه.. لا عجزا منه تعالى.. وإنما لضعف فى العاصى.. فهو المسؤول.. وخروجا من هذه المسئولية.. لابد من الإسراع إلى التوبة لقد هجم الشيطان عليه بجنده.. أغار عليه.. وهو مطالب بأن يرد الهجوم بجند من عزيمته.. من توبته وإحسانه.. ليكسب الجولة من جديد.

فجرد حسامك من غمده   فليس له اليوم أن يغمدا.

أهمية الأخلاق :

فقد قلت للغنى المزهو بماله الذى ينفقه كيف يشاء.. إنك لو ملكت ملء هذا الوادى ذهبا.. فلن ترضى أحدا.. يغضب صاحب الألف.. لأنك أعطيت غيره.. ألفين وسيشتد غضب من لم تعطه بالمرة.

وقد جعل لك ربك مخرجا.. أن تسع الناس بخلقك.. فخلقك الذى تتعامل به مع كل الناس.. ولن يحقد عليك أحد فخالق الناس..خالقهم.. عاملهم، لايكن

خلقك كامنا فى قرارك لايرى النور.. حاول أن يتفتح البرعم.. ليصبح زهرة يانعة.. أن نشق الزهرة عن عطرها.. ليشيع فى كل اتجاه.

الحياة فى غيبة الأخلاق

تأمل هذا.. وأمعن النظر فيما يحدث اليوم عندما تغيب الأخلاق.

عندما تتراجع الإنسانية.. وتتقدم الهمجية: إن الزلازل قد تضرب شعباً مّا.

وعندئذ تسرع الأمم إلى إنقاذه.. حتى العدو.. يسارع إلى نجدة عدوه.

ذلك ما يحدث فى الزلازل الكونية. أما عند الزلازل البشرية.. فماذا يحدث؟ إن الأرض تضطرب من تحت أقدام أقليات أسلامية فى دول باغية.. ويحدث الزلازل الأعظم. ولكن.. لاحس.. ولا خبر.. وكأن ما يحدث بعض أمانيهم، ولا بأس.. فإذا عرف السبب بطل العجب.

إنه الإنسان المــــادى.. يصنع الحضارة بفكره.. بعقله، وفــى نفس الوقــت.. بسلوكه.. بوجدانه.. لايكون متحضراً.

●●●●●

الإنسان فوق الزمان والمكان

عن أبى هريرة رضى الله عنه. أن رسول الله ﷺ قال: « **إذا مات الإنسانُ انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له**». رواه مسلم رحمه الله فى صحيحه.

تمهيد:

لما أطلقت روسيا قمرها الصناعى. ولما تفوقت اليابان على أمريكا صناعيا.. جن جنون أمريكا وحلفائها. ولم يكن منتهى آمالهم أن يطلقوا قمرا. أو يخترعوا شيئا بعينه يضاهى ما صنعته اليابان أو روسيا. ولكن الذى أهمها: كيف تعد المناهج لإعداد جيل الطلاب يصنع الحضارة ويملك زمام المستقبل.

إن الفرق هائل بين رجل يعطيك سمكة.. وآخر يعلمك كيف تصطاد السمك؟! وهذه النزعة الطامحة بنت الإسلام.. لأنه دين المستقبل.. الذى لا يكفيه منك أن تعيش لحظتك الحاضرة.. بل أن يمتد عمرك لتواكب الحياة حتى بعد أن تفارق الحياة. إننا لن نسأل عما قدمت أيدينا فحسب. بل سوف نسأل عن تصرفات الآخرين الذين تركناهم يسيئون. ولم نأخذ بأيديهم إلى الخير. بل لم نقدم لهم من طاقاتنا ما يمكنهم من مواصلة السير بعد مماتنا.. وإذا كان مهما أن تسعد نفسك بالخير.. فأهم منه أن تسعد الآخرين بالعمل الخصب المثمر.

«وإذا عَلِمَ الإنسان وإن بالغ فى الجد، بأن الموت يقطعه عن العمل، عمل فى حياته ما يدوم له أجره بعد موته».

فإن كان له شىء فى الدنيا. وقف وقفا. وغرس غرسا. وأجرى نهرا. ويسعى فى تحصيل ذرية تذكر الله بعده. فيكون الأجر له.

أو أن يصنف كتابا فى العلم. فإن تصنيف العالم ولده الباقى.. وأن يكون عاملا بالخير عالما فيه. فيتقبل من فعله ما يقتدى الغير به.

فذلك الذى لم يمت: « قد مات قوم وهم فى الناس أحياء»[1].

لكن ما هو مقصود الحديث:

إن المقصود بالحديث الشريف ألاَّ يستغرق الإنسان فى اللحظة الحاضرة من أجل منفعة عابرة. وإنما يرصد وقته كله لخير الإنسان حيثما كان ولا يقصر همه على فعل ما يحقق مصلحته الشخصية بل يعمل على قدر طاقته ليكون له فضل خير ينعم به الآخرون من بعد.

ولذلك يقول الحديث «**إذا مات الإنسان**».. أى المنسوب إلى معنى الإنسانية.. العامل لها.. وإن لم يدرك آثار عمله.. حتى لو أدركه الموت وفى يده «فسيلة» فليغرسها. وتلك مهمة الإنسان على ما يقول: «ابن الجوزى»[2].

« ينبغى للإنسان أن يعرف شرف زمانه. وقدر وقته. فلا يُضيع لحظة فى غير قربة ويقدم الأفضل فالأفضل من القول والعمل. ولتكن نيته فى الخير قائمة. من غير فتور بمالا يعجز عنه البدن من العمل.

كما جاء فى الحديث «**نيةُ المرءِ خيرٌ من عَملهِ**»..

وقد كان جماعة من السلف يبادرون اللحظات. فنقل عن عامر بن عبد قيس أن رجلا قال له: كلمنى. فقال: أمسك الشمس».

وإذا كانت الشمس دوارة لا تقف.. فيتبقى ألا يُضيع من ثمره لحظة بلا عمل!! إن البطل الفتى.. أو العبقرى ـ كما قال العقاد ـ لا معنى لبطولته ولا لعبقريته إلا إذا توافر له معنى الإنسان.. فكان للإنسانية عاملا. وعندئذ يمتد عمره فوق الزمان.. وفوق المكان.

عناصر البقاء:

أولا: الصدقة الجارية.. كأنها النهر الدافق بالخير.. يطفئ غلة الظماء. ويمنحهم من لدنه لحما طريا.

---

(١) فيض الخاطر ١٢.

(٢) فيض الخاطر.

إن الصدقة العابرة تقضى حاجة مثلها. . عابرة. . تتجدد بعدها حاجة الآخذ إلى مثلها. . وتبقى مشكلتك بلا حل!. . وتبقى أيضا تبعية الإنسان لمن يعطيه دائمة. . تتسرب من خلالها عناصر قوته. ثم تعجز الجهود الفردية عن إقامة المشروعات الضخمة. . وتظل الدولة مربوطة المصير بغيرها من الأجانب.

وإذا فرض التحايل على نفوس الجمهور بمطاليبهم أن يدفعوا «**بالتقسيط**». . فإن الإسلام بهذا الحديث الشريف يستنهض الهمم لبذل الأموال الطائلة لإقامة المشاريع القومية النافعة. . بناء مستشفى. . مدرسة. . مكان للراحة على طريق حار طويل. . جسر ممتد. . طريق ممهد. .

مشروع لأسرة توشك أن تنهار لتقف على قدميها. . تعليم ذكى فقير يصل بالتعليم إلى ما تريد له من تفوق. . ومعنى ذلك. . أن الإنسان يولد مرتين.

المرة الأولى: حين واجه الحياة وليدا غضا. .

وهذه الثانية: « تكون نسبة قلبه فيها إلى الدار الآخرة كنسبة جسمه إلى هذه الدار بعد أن كان فى بطن أمه. فيولد قلبه ولادة حقيقية. كما ولد جسمه حقيقة.

العلم النافع:

وإذا فاتك أن تعطى من جيبك مالا. . فلتبذل من قلبك علما نافعا. . ومن صور هذا العلم: تأليف وتصنيف. وتعليم. توضيح مبهم. تفصيل مجمل. تنسيق مختلط. إيجاز مطول. تبسيط معقد.

وإذا فرح المخلفون بمقعدهم فى منازلهم مع أبنائهم فأنت بما صنفت أو علَّمت باق ما بقى علمُك.

إن حصولك على إجازة علمية بالمرتبة العليا. . مسألة شخصية. . لكن صيروتها علما فى قلوب الناس. . ومشاعل على طريق حياتهم هو الأبقى ﴿**وَفِى ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ**﴾ [1].

الولد الصالح:

إن مسؤولية الإنسان عن الولد الصالح تبدأ باختيار أمه الصالحة. . فإذا ولد. .

---

(١) سورة المطففين الآية: ٢٦.

ونشأ صالحا كان ذخرا لوالديه.. وعمرا يمتد به أجلهما.. ولم تتعلق همة الصالحين من الآباء يكون الولد: مهندسا.. أو ضابطا أو مخترعا..

وإنما يكون من الصالحين المصلحين ليجددوا حياتهم.

يقول سبحانه: **﴿ رب هب لى من الصالحين﴾**. **﴿رب هب لى من لدنك ذرية طيبة﴾**. **﴿ ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين﴾**.

ولقد كان من دعاء إبراهيم عليه السلام.

﴿واجعل لى لسان صدق فى الآخرين﴾.

يقول شوقى:

دقَّاتُ قلب المـــرء قائلة لـــــه   إن الحـــياة دقائــــــق وثـــوان

فارفع لنفسك بعد موتـــك ذكرها   فالذكـــر للإنسان عمـــر ثــــان

وفرق كبير بين من يموت والقلوب عليه وله. والأعين عليه باكية والأمة كلها تثنى عليه بالخير. وتدعو له بالرحمة.

وآخر يموت ولا تبكى عليه عين. ولا يحزن لفراقه قلب. ولا يترحم عليه أحد هؤلاء الذين عاشوا فى الحياة سلبيين. أو ظالمين متجبرين. ومنهم ذلك الذى قال فيه الشاعر:

فذاك الذى إن عاش لم ينتفع به   وإن مات لم تحزن عليه أقاربه

وقال الله فيهم: **﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾**(١).

وكثيرا مايموت هؤلاء. ولا تموت معهم مظالمهم وآثامهم. أو كفرهم فقد ورَّثوه تلاميذ وأتباعا لهم. يقتفون آثارهم. وإذا كان من سنَّ سنَّة حسنة.. فله أجرها وأجر

---

(١) الدخان آية: ٢٥ ـ٢٩.

من عمل بها إلى يوم القيامة، فإن من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة وإذا كان من ترك علما نافعا. لم ينقطع عمله الصالح. فإن من ترك فكرا سيئا وفكرا مضلاً لم ينقطع أيضا عمله الطالح.

وهذا ما جعل الصالحين يقولون: طوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه. وويل لمن يموت وذنوبه باقية من بعده(١).

المسلمون اليوم:

يتنافسون فى مظاهر الحياة الدنيا.. ويديرون ظهورهم لما يبقى وصار أمر المسلم كما قيل: أما حب الدنيا عندك فراسخ.. وأما قلبك فمنك على فراسخ.

وإذا غلب الهوى فمن ينتبه؟ وإذا غاب القلب فمن يحدث؟

إذا كان قلبى موثقا بحبالكم.. وجسمى لديكم كيف أفهم عنكمو؟.

فإن شئتموا أن يقدلوا فتوصلوا.. إلى يعود القلب ثم تعلموا وهم فى العلم: **﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾**(٢).

وحامل المسك إذا كان مزكوما فلا خط له فيما أحمل.

ثم هو يطلبون الذرية القوية للدنيا... بينما يرصدون للآخرة وللدين أضعفها. والحديث الشريف.. يقطع عليهم الطريق فى محاولة لإيقاظ النُّوَّام ليقدموا للغد.. وما يتطلبه من عمل جاد... يصيرون به فى الخالدين.

●●●●●

---

(١) الوقت فى حياة المسلم للقرضاوى ٦٣:٦٤.

(٢) سورة الروم، الآية:٧.

عن المقداد رضى الله عنه قال: أقبلت أنا وصاحبان لى. قد ذهبت أسماعنا وأبصارنا من الجهد. قال: فجعلنا نعرض أنفسنا على أصحاب رسول الله ﷺ. ليس أحد يقبلنا. قال:

فانطلقنا إلى رسول الله ﷺ. فانطلق بنا إلى أهله. فإذا ثلاث أعنز. فقال رسول الله ﷺ: احتلبوا هذا اللبن بيننا». قال: فكنا نحتلب. فيشرب كل إنسان نصيبه.. ونرفع لرسول الله ﷺ نصيبه. فيجىء من الليل. فيسلم تسليما لا يوقظ نائما.. ويسمع اليقظان. ثم يأتى المسجد فيصلى. ثم يأتى شرابه فيشربه.

قال: فأتانى الشيطان ذات ليلة. فقال: محمد يأتى الأنصار فيتحفونه. ويصيب عندهم.. ما به حاجة إلى هذه الجُرعة.. فاشربها.. قال: مازال يزين لى حتى شربتها.

فلما وغلت فى بطنى.. وعرَف أنه ليس إليها سبيل. قال: أنْدَمَنى.. فقال: ويحك!! ما صنعت؟!! شربت شراب محمد؟ فيجىء ولا يراه فيدعو عليك فتهلك فتذهب دنياك وآخرتك؟!! قال: وعلىَّ شملة[1] من صوف كلما رفعتها على رأسى. خرجت قدماى. وإذا أرسلت على قدمى خرج رأسى. وجعل لا يجىء لى نوم. قال: وأما صاحباى. فناما.

فجاء رسول الله ﷺ. فسلم كما كان يسلم. ثم أتى المسجد فصلى. فأتى شرابه. فكشف عنه. فلم يجد فيه شيئا.

فرفع رأسه إلى السماء قال: قلت: الآن يدعو علىّ.. فأهلك. فقال: « **اللهم أطعم من أطعمنى.. واسق من سقانى**». قال فَعَمَدت إلى الشملة. فشددتها علىّ. فأخذت الشفرة.

فانطلقت إلى الأعنز.. أجُسّهن أيهن أسمن فأذبحُ لرسول الله ﷺ. فإذا هن حفل كلهن.

---

(١) كساء صغير يؤتزر به.

فعمَدت إلى إناء لآل محمد. ما كانوا يطمعون أن يحلُبوا فيه. فحلبت فيه حتى علته الرغوة. ثم جئت به إلى رسول الله ﷺ فقال: أما شربتم شرابكم الليلة يامقداد قال: قلت: اشربْ يارسول الله . فشرب. . ثم ناولنى فقلت: يارسول الله اشرب. . فشرب ثم ناولنى. . فأخذت مابقى فشربت.

فلما عرفت أن رسول الله ﷺ قد روى. فأصابتنى دعوته.

ضحكت. حتى ألقيت إلى الأرض. قال رسول الله ﷺ: احدى سوآتك يامقداد. قال: قلت: يارسول الله: كان من أمرى كذا. . صنعت كذا. فقال ﷺ: ما كانت هذه إلا رحمة من الله. . ألا كنت آذنتنى. توقظ صاحبيك هذين فيصيبان منها؟ قال: قلت:

والذى بعثك بالحق. ما أبالى إذا أصبتها. وأصبتها معك من أصابها من الناس»[1].

يقول المقداد رضى الله عنه:

« أقبلت أنا وصاحبان لى. قد ذَهَبَتْ أسماعنا وأبصارنا من الجهد. قال: فجعلنا نعرض أنفسنا على أصحاب رسول الله ﷺ. ليس أحد يقبلنا».

درس فى العزة :

شىء وارد أن تمر بالإنسان لحظات من الضيق. . فيبحث عن صديق يعينه على تجاوز محنته.

ولكن: متى تطلب العون. . وممن تطلبه؟

إن الإحساس بالكرامة مانع من بسط اللسان بالسؤال. . إلا إذا كان الموت هو البديل. أما قبل ذلك. . فلا .

وقد ضن الرفاق هنا بكرامتهم أن تبتذل. . إلى أن كاد الجوع أن يذهب بأسماعهم وأبصارهم.

وهو درس فى الكرامة الإنسانية. . وفى عزة الإيمان التى يجب أن تصان. . هذه الكرامة التى كان من قوانينها ما قاله الحكماء:

---

(١) مسند الإمام أحمد ج٦/٣.

الكرامة التى كان من قوانينها ما قاله الحكماء:

ابذل لصديقك.. دمك ومالك. ومعارفك.. رفدك. وللعامة.. بشرك.

ولعدوك.. عدلك. أما الدين.. والعرض.. والكرامة.. فلا يناله أحد.

ولقد كان من تكريم الله تعالى للإنسان أن جاءت تشريعاته ناهية عن نجوى اثنين.. دون ثالث.. حتى لا يحسّ بالهوان.

إلى الحد الذى صارت إهانة المسلم دركا من الشر يكفى لتجريم المعتدى.

« **بحسب امرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم**»[1]. والمسلم حقا هو «**من سلم الناس من لسانه ويده**».

ولاحظ تقديم لإيذاء باللسان.. على الإيذاء باليد.. لأن اللسان يجرح الكرامة.. ونحن المسلمين:

تهون علينا أن تصاب جسومنا   وتسلم أعراض لنا وعقول

وناهيك بدين العزة الذى يقول لك: إذا رأيت إلقاء التحية على من قدمت إليه جميلا يحرجه فلا تلق عليه السلام.

ودروس فى الإدمان

قلت يوما لشارب الدخان: من إعزازك لنفسك أن تحررها من أسر العادة. فلا تحاول أن تستجيب لمزاجك فتشعل اللفافة لأول بادرة من نفسك.. حاول أن تراوغها.. حتى تطول الفاصلة بين اللفافة وأختها.. تمهيدا للإقلاع عنها من بعد.. وبسهولة.. أسوة بالرفاق هنا.. والذين صرخت معداتهم بالجوع.. لكنها سدوا آذانهم عنها.. ولم يسألوا إلا بعد أن رأوا أمارات الموت.

بل إنهم لم يسألوا.. ولكنهم فقط كما تقول الرواية «.. فجعلنا نعرض أنفسنا».

يعنى: يعترضون عبر الطريق.. فلعل الصحاب أن يجدوا فى مرآة أعينهم الغائرة أمارة الجوع.

---

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة فى رياض الصالحين برقم ١٥٧٤.

وفى العين: غنى للعين.. أن تنطق أفواه وإذا أردت أن تعرف المكنون.. فتأمل العيون.

الأجدر بالسؤال

ومضيا مع تكاليف العزة الشاقه.. لا نسأل إلا من كانوا عند حسن الظن بهم رجالا.. هم صحابة رسول الله ﷺ وهكذا: كم تكلف الكرامة أصحابها.. حتى قال قائلهم:

تعجلت هذا الشيب فى زمن الصبا — لخوض غمار الهم فى طلب المجد

فمهما رأيتم شيبة فوق مفرقى — فلا تنكروها.. إنها شيبة الحمد

وقول عبد المطلب:

لنا نفوس لنيل المجد عاشقة — وإن تُسْلَت.. أسلناها على الأسَل

لا ينزل المجد إلا فى منازلنا — كالنوم: ليس له مأوى سوى المُقَل

إنها النفوس التى تمكنها العزة من الصمود فى مواجهة الأحداث.. أما هؤلاء الذين لا يملكون الكرامة.. فهم هياكل.. فى مهب الريح.

محنة الكرماء:

أرسل حكيم إلى ملك من ملوك الأكاسرة أربعة أسطر.

الضر.. والأمل.. أقدمانى عليك.

الحاجة.. لايكون معها صبر.

الإنصراف بلا فائدة.. فتنة. وشماته للعدو.

فإما.. نعم.. مثمرة.. وإما «لا» مريحة!.

وهكذا كان حال المقداد ووفاقه.. وكان حالهم أبلغ من مقالهم..

فماذا كان هناك فى قلوب الصحاب المعتذرين؟

لم تكن محنة المقداد وصاحبيه بأقسى من محنة الصحابة الذين لم تمكنهم ظروفهم

من مدِّ يدى العون إلى إخوانهم. . وكانوا على ما يقول الشاعر:

إن الكريم الذى لا مال فى يده

مثل الشجاع الذى فى كفه شلل!

لقد كان يدعوهم إلى الكرم داعيان:

١ ـ فطرة العروبة التى كانت تناوشهم قبل الإسلام فهمّوا بقتل أولادهم تكريما لضيوفهم!

٢ ـ أخوة الإسلام التى تقوم مقام النسب.

٣ ـ نصرة تبلغ حد مواجهة الموت من أجل أخيك المسلم وإذا كانت النصرة هنا مالية. . أو جسمية. . أو أدبية. . فإن الصحابة لم يكونوا يملكون إلا الاعتذار. .

قبول الاعتذار :

ومادامت عن الصحاب بصيرة. . واليد قصيرة. . فقد كان لابد من قبول الاعتذار. .

ذلك بأن البيوت أسرار. . والناس أيضا أسرار. .

ولا يجمل بالمحتاج أن يحمل الآخرين فوق ما يطيقون. . ويكفى ما يلاقونه من عذاب. . يكمن فى مقاومة داعى الفطرة وداعى العقيدة. . وما أصعب الامتحان!

لقد استبعد الفاقدون الدموع أن تكون حلا لمشكلتهم. .

ذلك بأن البكاء إذا كان ضروريا أحيانا. . فإنه لن يكون فى يوم ما حلا لمشكلاتنا.

الدور البشرى أولاً :

وواجب المحتاج أن يظل مستسكا بحبل الأمل فى فرج قريب. .ثم يواصل دوره فى السعى. .

وهذا ما فعله المقدار وصاحباه. . من حيث إنهم رفضوا أن يكونوا متواكلين. . وصمموا على أن يكونوا متوكلين. .

لقد كان حُجاج اليمن يخرجون للحج بلا زاد. . ثم يسألون الناس فى الحرم فنزل

قوله تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ (١).

وكانت الآية الكريمة حلا لمشكلة اجتماعية اقتضت أن ينزل فيها قرآن.

لقد أخذ قبضة من تراب - ليلة الهجرة - ثم رمى بها وجوه القوم.. وعندئذ انتهى دوره البشرى.. ثم أعماهم الله تعالى بعد ذلك.. وهذا ما فعله الصحاب..

الرسول ينقذ الموقف

يقول المقداد: [فانطلقنا إلى رسول الله . فانطلق بنا إلى أهله. فإذا ثلاثة أعنز. فقال رسول الله ﷺ: «احلبوا هذا اللبن بيننا»

يفرض الإسلام على المسلم ألا يكون واحدا من هؤلاء: ألا يكون محدثا.. بينما لا يُنصت له. ولا داخلا بين اثنين فى سر.. لم يدخلاه فيه. ولا آتيا دعوة لم يُدع إليها.. ولا جالسا مجلسا لا يستحقه.. ولا طالبا الفضل من أيدى اللئام.

ولا متعرضا للخير عند عدوه.. وهكذا كان الصحاب الذين خصوا بالرجاء أهل الرجاء.. لقد ذهبوا إلى الرائد الذى لا يكذب أهله.. وهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم..

ولقد أنقذ الموقف.. أنقذه بما يملك ﷺ من عناصر العظمة الكامنة فى:

١ - قيادة حكيمة.

٢ - وخطة محكمة.

ومن حكمة القيادة:

أ - التنمية البشرية أولا.. استثمار طاقات الرجال أن تُعطَّل.. فلسيت الأمة بما تملك من ثروات وموارد..

ولكن الأمة بما تملك من رجال صالحين مصلحين..

إن اليابان اليوم.. لا تملك موارد طبيعية.. وإنما تملك رجالا.. بلا طفولة..

رجالا.. يعلمون.. ويعملون منذ نعومة أظفارهم..

---

(١) البقرة ١٩٧.

ب ـ قيادة مؤمنة. ومن إيمانها أنها لا تمنّ ولا تؤذى..

وقد يكون الجميل جزيلا.. لكنه بالمن والأذى يصبح نقمة على صاحبه.

ذكروا أن امرأة قالت لرجل صالح: دلنى على مجاهد صالح لأجهزه للقتال.. فإنى أعلم أن كثيرا منهم يخرج للمغنم.. فقال لها: لا بارك الله فى مالك.. فقداذيتيهم قبل أن تعطيهم!

جـ ـ قيادة زاهدة: ومن زهدها: أنها كانت تملك أن يسيل التراب بين يديها تبرا.. وأن تستحل جبال مكة ذهبا ـ كما قيل بحق ـ

ولكنه آثرا لتقشف والزهد فيما يملك أو يملك الناس..

وهكذا:

١ ـ يحتمل ﷺ المتاعب.. لترتاح أمته.

٢ ـ يصبر على بواعث الألم والتوتر.

٣ ـ يحتقر مظاهر الدنيا.. ليظل عمله للرسالة.. لأن الاشتغال بما سواها. خيانة لها.

٤ ـ فاشتغاله بها فرض عليه أن يرصدلها وجوده كله.

٥ ـ وهو بذلك مثال الداعية الحق.. الذى لو تعارضت مصلحته الشخصية مع مصلحة الدعوة.. آثر مصلحة الدعوة بلا تردد..

٦ ـ ومن خلال ذلك كله يظهر معدن الداعية الذى يرحم أتباعه.. ولا يكلفهم من أمرهم عسرا..

لقد كان ﷺ سعيدا بأضيافة المرهقين المجهدين.. المتقين.. والذين هم أخلص فى الدعاء.. وأخشع فى العبادة..

وإذن فهم الصحاب الكرام الذين يذكِّرونه بالله تعالى..

ثم هم الأنقياء.. فهم أحق بطعامه..«ولا يأكلْ طعامك إلا تقى»

إن قيمة المال لا تكمن فى ذاته. ولكن بمقدار ما يخفف من آلام البشر ولذلك قرر ﷺ أن ينتقل المال إليهم ليكون عافية فى أبدانهم..

إن احتباس المال يساوى احتباس الدم فى العروق.. المؤدى إلى فقد الإحساس..

والمال : مثل الحصى ما دام فى يدنا

فليس ينفع إلا حـــين ينتقل

وذلك واحد من مواطن الأسوة فى حياته ﷺ: لقد حجّ عليه الصلاة والسلام.. مرة واحدة فى عمره المبارك.. وكان أيضا أجود من الريح المرسلة.

لكن بعضنا اليوم.. يؤثر أن يحج عشرات المرات.. ثم تراه يبخل بماله..

وكان أجدر بنا أن نتبعهﷺ فى سنن لها أثرها فى حياة الآخرين..

لكن البعض منا يلح على ما يرضى غروره.. تأكيدا للذات.. أما الصدقات : فهى ما يهم غيرنا.. ومن ثم.. لا تحظى بتقديرنا!

ولاية المؤمنين وولاية المنافقين :

فى مجتمع النفاق.. لا تجد بين المنافقين أخوة تجمعهم.. ولا تناصر يحميهم لأن النفاق: شك وذبذبة والمذبذب هو: ذلك الحجر المتحرك فلا ينبت عليه عشب.

ومن إفرازات الشك: الجبن.. والبخل.

وهما الحاجزان المانعان من الأخوّة والتناصر.. وقصاراه. التعاون بالشعارات. وما لا يشق من الأعمال.

أما العقائد الثابتة.. فإنها تحمل أتباعها على البذل والعطاء وأمرهم على ما يقول شاعرهم:

إن يختلف ماء الوصال.. فماؤنا

عذب.. تحدّر من غمام واحد

أو يفترق نسب.. يؤلف بيننا

نسب أقمناه مقام الوالد

●●●●●

ولقد كان من الممكن أن يجلس الضيوف فى حجرة الاستقبال . . بالتعبير العصرى . . ثم يدعون إلى الطعام كما يفعل السادة الكرام . .

ولكن الرسول الله ﷺ يضيف إلى حكمته البالغة . . خطته المحكمة!

والرمية إلى إيناس الضيف . . وإذهاب وحشته . . وإشعاره أنه فى بيته الثانى!

وتم ذلك عبر مراحل:

أ - الجلوس فى حجرة الضيوف يعمق الإحساس بأنهم . . ضيوف : يعنى: غرباء . .

ب - ويجىء تكليفهم باحتلاب الأعنز . . وهم فى عمق الدار . . ثم هم الذين يقسمون ويوزعون . . يجىء ليسقط الكلفة بين الضيف والمضيف . . على نحو ما قال الشاعر:

يا ضيفنا قــــــد زرتنا لكننا

نحن الضيوف وأنت رب المنزل

جـ - ولاحظ أنه ﷺ يطلعهم ثم يطلق يدهم فى الأعز كلها حتى لا يكون عليهم من حرج فى أن يشربوا غير متحرجين . .

ولو قيدهم بواحدة لكان قيدا أيضا على أنفسهم التى لن تشرب إلا النذر اليسير!

د - فإذا أضيف إلى ذلك كله ذلك التبسط . . وتلك البشاشة المحمدية . . مع البسملة والتحميد . . ما يشكل جوا من السرور يجعل الطعام هنيئا والشراب مريئا . . ليسرى بعد ذلك فى العروق دما . . وفى البدن قوة!

هـ - ولا ننسى أهمية مؤاكلة الضيف . . وما فيها من فوائد تعمق إحساس الضيف بأنه فعلا فى بيته.

وإذ يحمل الغرور أو الترفع بعض المترفين على إطعام الضيوف ليتفرد هو من بعدُ بكل مالذ وطاب من الطعام والشراب . . فإن هذه المشاركة الوجدانية من قبله ﷺ . .

والتى ساوت بينهم فى الشراب.. تحقق الأخوة الجامعة ذلك بأن الضيف الذى يأكل وحيدا:

١ ـ يستحيى من هذا الانفراد.. ويستوحش..

٢ ـ لايأكل بحرية.. فالأنظار مسلطة عليه..

٣ ـ ومما يقيده إحساسه بمعرفة أهل البيت كم أكل..

٤ ـ وربما كان هناك صغار .. يتغامزون ثم يضحكون..

إن الرسول ﷺ ليضع للضيافة آدابها العالية والتى حدث ببعض الصالحين أن يقول معاتبا هؤلاء الكانزين:

أعيانى البحث عن مضيف يظن أننى لم آكل من رزقه شيئا!!

ولقد أسهمت حكمته .. وخطته ﷺ فى إشعار الضيف بأنه يأخذ حقه المعلوم.. رزقه المقسوم فلا منة لأحد عليه!!

من .. الأنا .. إلى .. نحن..

لخص الفيلسوف ..برناردشو .. مشكلة العالم قائلا:

إنها تكمن فى .. صلعتى .. ولحيتى!!

يعنى: تجمع الشعر فى ذقنه .. بينما تشتكى رأسه الصلع!

والحل: أن ينتقل بعض ما فى ذقنه .. ليكون فى رأسه!

ويحكى فى ذلك: أن زميلا له كان .. بَدِينًا .. سخر يوما من نحافته قائلا: من رآك «ياشو» يظن أن فى انجلترا مجاعة!

فأجابه على الفور: ومن ينظر إليك يا صديقى يعرف سبب هذه المجاعة!

وقد حل الرسول ﷺ هذه المشكلة .. وردم هذه الفجوة بين الواجدين والفاقدين .. بهذا التعاون. حين رصد كل أعنزه لتكون تحت تصرف أصحابه.

وما كان له أن يبيت شبعان وجاره جائع.

إنها صورة من التعاون البالغ حد الإيثار . . يباشره رسول كريم فطرة الكرم فيه: طبعا . . لا تطبعا . .

تعاون . . من لم يجلس على مائدة قط . . ولم ير منخلا قط . . ولم يعب طعاما أبدا: إن اشتهاه أكله . . وإلا تركه. إنه المضيف العظيم: الذى لم يردَّ موجودا ولم يتكلف مفقودا.

أما هؤلاء الذين نشأوا فى النعيم وغذوا به . . فإنهم لن يرتقوا إلى هذا المستوى فى مجتمع تجد الأيتام غائبين عن موائد اللئام . .

الأمر الذى يفرض على أمتنا أن تأخذ أطفالها بسليقة التعاون منذ نعومة أظافرهم: وكما نهذب شعر الطفل . . ونقلِّم أظافره . . فإن علينا قبل هذا أن نهذب «الأنا» حتى لا تستبد به الأنانية . . .

ولقد قالوا: إن سر تفوق الشمال على الجنوب هو: روح الفريق السائدة فى الشمال . .

فلنضف من حساب «الأنا» إلى حساب «نحن» حتى لا نبدد طاقاتنا فى صراع دائم بين: أنا . . ونحن . . هذا الصراع الذى لم يكن موجودا يوم أن كان هناك رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه . . فآثروا على أنفسهم. ولو كان بهم خصاصة.

يقول المقداد [فيجىء من الليل فيسلم تسليما: لا يوقظ نائما . . ويسمع اليقظان ثم يأتى المسجد فيصلى . ثم يأتى شرابه فيشربه].

ولاحظ من أدب النبوة العالى ما هو درس لرفاق العمل أو السكن . . . فمع أنهم فى بيته . . وأسرى كرمه لكنه إذا جاء من الليل سلم سلاما لا يزعج أحدا . .

وأين من هذا الأدب ما يمارسه اليوم شركان متشاكسون . . عندما يسلم أحدهم عينيه للكرى . . فإذا بالقادم يترنح آخر الليل . . إذا به يضىء المصابيح فى هرج ومرج لا يراعى أبسط قواعد الذوق.

ألا إن أدب النبوة العالى . . يغنينا . . حتى لا نتسول قواعد السلوك من هنا وهناك . .

إن الوجه الصقيل كمرآة المرأة الغريبة[1] . . فليس هو فى حاجة إلى مساحيق . . لأن جماله الطبعى فى غنى عن التزويق والتلفيق.

معركتنا مع الشيطان

قال المقداد رضى الله عنه: . . فأتانى الشيطان ذات ليلة فقال: محمد يأتى الأنصار فيتحفونه. ويصيب عندهم . ما به حاجة إلى هذه الجفرعة . . فاشربها. قال: ما زال يزين لى. حتى شربها. فلما وغَلَتْ فى بطنى . وعَرَف أنه ليس إليها سبيل. أنْدَمَنى فقال: ويحك!! ما صنعتلله! شربت شراب محمد فيجىء. ولا يراه فيدعو عليك. فتهلك. فتذهب دنياك وآخرتك؟! قال: وعلىّ شملة من صوف: كلما رفعتها على رأسى . . خَرَجت قدماى. وإذا أرسلْتُ على قدمىّ خرج رأسى. وجعل لا يجىء لى نوم. قال: وأما صاحباى فناما. . .

وهكذا يضرب الشيطان ضربته وفيالوقت المناسب: عند الأزمات الاقتصادية . . وفيالأزمات النفسية. .

لقد استغل ندرة الشراب والطعام أولا . . فوسوس إلى المقداد رضى الله عنه. . حتى شرب نصيبه ﷺ.

فلما نجح فى توريطه فى هذا الخطأ . . دخل به فى دوامة ندَم قاتل. .

يعنى: أنه يسدد ضربته عندما تضعف مقاومة الإنسان فى أزمته الاقتصادية والنفسية.

وتذكر هنا قوله تعالى: **﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك﴾** إنه يمارس هواية الوقيعة بين الصحاب . . أوْفَى الصحاب . . يفعل ذلك ليحزن الذين آمنوا . .

إنه لص . . بل لص ماهر ثم هو عدو . . بل عدو مبين. . ولأنه لص ماهر . . فلا يقصد إلا البيت العامر . . إلا القلب العامر . . إلا هذا المستوى العالى من الأخوة الجامعة . . حتى تكون ضربته فى الصميم . . وتكون الخسائر فادحة.

---

(١) يقولون: وجه كمرأة غريبة . . لأن المرأة الغريبة فى غير قومها . . فمرآتها مجلوة دائما لأنه لا ناصح لها من قومها فى وجهها.

ولأنه عدو مبين . . فهو لا يقصد إلى هدف قريب . . وإنما يرمى إلى هدف بعيسد: أن يربطك به . . لتسارع من بَعْد فى هواه . .

ولأن كيد الشيطان كان ضعيفا . . . فإنه لا يجرؤ على المواجهة . . وإنما يوسوس يزين . .يتحايل مزينا للضحية الشر . . فى ماولة لتليين الإرادة التى لانت فعلا . . حين استجاب المقداد رضى الله عنه لوسوته تحت وطأة هذا التزيين . . .

لكن المقداد رضى الله عنه لم يسقط عند الهجمة الأولى فهو يقول: ما زال يزين لى . . حتى شربتها)

واستمرار التزيين يعنى مقاومة المقداد للأغراء زمنا طويلا . .

ثم إنه فعل ما فعل معتقدا قبحه . . وإنما انطلت عليه حبلة الشيطان الذى زين له الأمر . . فرآه حسنا . . ولم يفعله معتقدا صحته.

ولاحظ خطة الشيطان التى تنطلق من بعض المسلّمات تمويها:

فالرسول ﷺ . . عند الأنصار فعلا . . ثم إنهم كرماء كرما بلغ حد الإيثار . . فإذا تعلق الأمر بالرسول . . فهم وما ملكت أيمانهم . . له . .

وإذن . . فقد دقَّ مكر الشيطان . . ولطف كيده حتى أوقع المقداد: القائد العسكرى فى الشّرك المنصوب . . وهو فارس الحرب وبطلها . .

وفجأة . . تيقظت نفس المقدار رضى الله عنه . . تيقظت على شناعة ما صنع . . وكان طبعيا أن يظل صايا . . لا يذوق للنوم طعما . . بينما كان صاحباه يغطان فى نوم عميق.

ولعلنا ندرك حجم الندم هنا . . إذا تصورنا بعض الصحاب رضوان لله تعالى عليهم . . عندما كان يخطئ خطأ غير مقصود . . ثم يصحو ضميره . . فيتمنى أن لو يكن أسلم إلا هذه الساعة.

وقد يكون مضى على إسلتامه خمس قرن من الزمان . . حافل بجلائل الأعمال . . لكنه يتمنى أن لو محيت من صحيفة أعماله . . ولم يكن أخطأ فى حق الرسول ﷺ.

ولكن . . ولكن فرحة الشيطان المريد لم تتم . .

لقد نجح فعلا فى الجولة الأولى . . إلا أنه وفى الجولة الثانية قد هزم ولم يحقق أربه . . أمام كرم الرسول ﷺ الذى لم يكن يقول العفو كلاما . . وإنما تكثله فكان القدوة الحسنة.

هذا العفو الذى أنقذ المقداد من دوامة الهموم . . فكان أن هزم الشيطان بالعفو . . الذى هو أمضى من كل سلاح . . وأرجى لكل صلاح.

يقول المقداد رضى الله عنه: فجاء رسول الله ﷺ.

فسلّم كما كان يسلم. ثم أتى المسجد فصلى. فأتى شرابه . فكشف عنه. فلم يجد فيه شيئا . . فرفع رأسه إلى السماء قال: ـ قلت: الآن يدعو علىّ فأهلك. . فقال: «اللهم أطعم من أطعمنى واسق من سقانى» .

وقال فعمَدت إلى الشملة فشددتها على رأسى فأخذت الشفرة فانطلقت إلى الأعنز أجُس أيهن أسمن فأذبح لرسول الله ﷺ فإذا هن حُفّلٌ كلهن . .

لقد توقع المقداد رضى الله عنه قارعة تحل به إذا دعا عليه رسول الله ﷺ . . ولقد مضت اللحظات بطيئة ثقيلة . . فلما سمع الرسول الكريم يدعو لم يطعمه ويسقيه . . تغير الموقف تماما . . بعدما تجاهل ﷺ ما حدث . . ولم يتباك عليه . . ولم يتخذ منه ملهاة أو مسلاة يكوى بها ضمير صاحبه . . ويكفى ما يحمله من هم دفين يكاد ليقتله . . ولا يليق بالكريم أن يجمع على صابه همّين:

همّ التقصير . . وهمّ التأنيب:

لقد أدرك ﷺ أن خللا حدث فى علاقات الأخوّة . . وأن بعض ضيوفه قد أخل بواجبات العهد المبرم بينهم . . وماكن له أن يضغط على قلبه المهموم حتى ينفجر . .

إننا منهيون بحكم المروءة ألا نضرب أولادنا والضيف عندنا . حتى لا نوقعه فى الحرج . . فكيف. بإيذاء السيف نفسه . . ذلك ما لا يكون . .

من أجل ذلك . . نراه ﷺ يفتح الطريق بهذا الدعاء. أمام المخطئ ليصلح ما أفسد . . .

ذلك . . بأنه إمام المتقين والمتقون يغضبون . . ولكنهم لا يحقدون. يحزنون . . لكنهم أبدا لا يقنطون. . تمنعهم المروءة من الحق. . ويحميهم الإيمان من اليأس . . ولو أنهم حاسبوا . . لا ينتقمون. . يعاقبون . . ولكن لا يشهرون. . وإذا ما غضبوا هم يغفرون . . شعارهم وإذا الصديق أتى بذنب واحد جاءت محاسنه لألف شفيع.

[أخوّة أقوى من كل اعتبار].

إنها أخوة أقوى من الزمن . . لا تذهب بها الهفوات . . لأنها من صنع الإيمان. .

وأين هى من علاقات البشر . . والتى منها علاقة تلك الفتاة بخطيبها على مدى سبع سنوات كان على عهد الزواج فيها مسئولا . . من حيث صار فى حسها حاضرها ومستقبلها. .

وفى ليلة الزفاف . . وقع الكأس من يده الواجفة فبلل ثوب الزفاف فلطمته لطمة ذهب بكل آمالهما . . وانتهيكل شىء.

وأين منها علاقات القائد بقاعدته الشعبية فى دولة أجنبية والذى قال: اتفقت مع شعبى على أن يقول ما يسره . . وأن أفعل ما يسرنى. .

إنها علاقات هشة لا تصبر على لنقد الصحيح. .

أما فى ضوء الإيمان فإنها ثابتة الأركان . . لا يهزها ريب الزمان!

ولقد قالوا: كان من عادة ملوك الفرس أنهم إذا أخطأ عالم . . فغضب عليه . . حبسه مع جاهل . . وإذن فما أشد عذابه فى موقف لا صوت فيه يعلو فوق السوط . . سوط المنطلق الغشوم يتحرش به فى زنزانته. .

أما الرسول ﷺ. . فلم يغضب ابتداء ولكنه استغل الموقف لكسب قلوب الرجال وتنمية المودة بين الصحاب.

وإذا كانوا يقولون: إياك والحاكم: فإنك: إن لازمتهم . . ملّوك. وإن ابتعدت عنهم. . أذلّوك. . وعند العقاب يقطعون الرقاب. .

إذا كانوا يقولون ذلك . . فإن الرسول ﷺ كان رحمة مهداة . . ونعمة مسداه . . على نحو اختزل المسافة بين الحاكم والمحكوم . فعاشوا معا على الطريق ضد عدو واحد هو الشيطان الرجيم.

إنها تلك المجالس المباركة . . والتى تصاحب فيها الصالحين فإذا أنت منها ذو حظ عظيم:

تنقلك من الرياء . . إلى الإخلاص. ومن الرغبة فيالدنيا إلى الرغبة فى الآخرة ومن الغفلة . . إلى الذكر . . من الكبر. . إلى التواضع ومن سوء الطوية . . إلى النصيحة.

يقول المقداد رضى الله عنه قال: فحلبت . . ثم جئت به إلى رسول الله ﷺ فقال: أما شربتم شرابكم الليلة يا مقداد. قلت: اشرب يا رسول الله. . فشرب . . ثم ناولنى فقلت: يا رسول الله: اشرب . . فشرب. . ثم ناولنى . . فأخذت ما بقى. فشربت.

فلما عرفت أن رسول الله ﷺ قد روِى فأصابتنى دعوته . . ضحكت حتى ألقيت إلى الأرض. قال رسول الله ﷺ: إحدى سوآتك يا مقداد» قال: قلت:

يا رسول الله كان من أمرى كذا . . صنعت كذا. . فقال ﷺ: **«ما كانت هذه إلا رحمة من الله.. ألا كانت آذنتنى توقظ صاحبيك هذين فيصيبان منها»**.

قلت: والذى بعثك بالحق ما أبالى إذا أصبتها . . وأصبتها معك من أصابها من الناس.

لقد كانت ضحكة المقداد رضى الله عميقة هزته فألقته على الأرض . . لأنه فاز بما هو أغلى من الدنيا كلها وهو: رضاء رسول الله ﷺ. . ثم تحقق دعوته فيه. . فما يبالى من بعد أن أصابت غيره أم لم تصب. .

وقد كان الرسول ﷺ عظيما حسن تمنى أن لو كان الرفاق أيقاظا حتى لا يذهب المقداد بالدعوة المباركة وحده . . إنه الكرم النبوى . . والذى يسع الخطائين جميعا . . وإنه لقسم لو تعلمون عظيم.

أما بعد فقد روى ياقوت فى معجم الآباء:

[أن الطلبة إذا أتوا مجلس الأصمعى اشتروا البعر فِى سوق الدر . وإذا أتوا مجلس أبى عبيد اشتروا الدر فى سوق البعر].

ويعنى ذلك ـ كما يقول الباحثون: أن الأصمعى كان حَسَنَ الإنشاء . . والزخرفة قليل الفائدة. وكان أبو عبيد بَضدٍّ ذلك. .

فبينما يتدفق الأصمعى تدفق الأديب المصور الممتع . . فإن أبا عبيد يوجز عبارته بلا تنميق ولا تزويق . . وإنّما يُهمه: الفائدة.

ونقول: إذا كانت هذه حصيلة مجالس الأدباء. . فرن لمجلسه ﷺ مذاقا آخر:

فإن رواد مجلس رسول الله ﷺ يشترون الدر فى سوق الدر!! بما يحفل به المجلس ليس فقط بجوامع كلمه ﷺ وإنما بجوامع خلقه العظيم.

●●●●●

أبو بكر رضى الله عنه

العابد .. الإنسان

قال ﷺ لأصحابه:

«من أصبح منكم اليوم صائما» قال أبو بكر: أنا.

فقال: «من تبع منكم اليوم جنازة؟» قال أبو بكر: أنا.

قال: «فمن أطعم منكم اليوم مسكينا؟» قال أبو بكر: أنا.

قال: «فمن عاد منكم اليوم مريضا؟» قال أبو بكر: أنا.

فقال ﷺ:

«ما اجتمعن فى امرئ إلا دخل الجنة» .. رواه مسلم..

تمهيد:

وقف الغنىّ الذى ضاع ماله على باب اللئام يسألهم رغيفا: فقالوا: يفتح الله عليك.

فقال: كسرة خبز..

فقالوا: ما نقدر عليها..

قال: فقليل من بر أو شعير .. فقالوا: ما عندنا .. قال: قطعة من الدهن . أو قليل من الزيت..

فقالوا: لا نجده..

قال: فشربة ماء .. فقالوا: ليس عندنا ماء!!

فقال لهم: فما جلوسكم هنا إذن؟! .. قوموا فاسألوا .. فأنتم أحق بالسؤال منى!!

ويعود العزيز الذى ذل آسفا .. لا على لقمة لم ينلها.. وإنما على خاطره الذى انكسر..

ومن الذى كسره؟

لئام الناس . . وتلك مصيبة الأحرار . . فأشد من الحرمان أن يتحكم فيك الجبان وذلك ما عناه الشاعر بقوله:

ولو أنى بليت بها شمِّى	خئولته بنو عبد المدان
لهان علىّ ما ألقى . . ولكن	تعالوا فانظروا بمن ابتلانى

وإذا كان اللئام يغبِّشون وجه الحياة. . فرن من رحمة الله تعالى أن يجعل المعروف بيد الكرام:

ليشبع الجائع . . ويقوى الضعيف . . ويتعلَّم الجاهل . . وينشط الكسول . . وحين يسارعون . . فإنهم يسارعون فى الخيرات . . وحين يتسابقون فإنما يتسابقون إليها. . ويتنفاسون فيهت. ولا ينسون فى سباقهم كرامة الإنسان أوّلا:

والتى يجب أن تصلن: بتعجيل المعروف. . ثم تصغيره فى أعينهم. . ثم ستره حفاظا على ماء الوجوه. . وبذلك يشيع الحب . . وبالحب وحده تصير الأمة قادرة على إيقاظ قواها النائمة كلها. .

والحديث الشريف الذى بين أيدينا دليل هذا السباق المبارك: فى الخيرات . . وإلى الخيرات ثم هو واحد من مجالس العلم:

والسؤال فيه: من الأستاذ . . لا من التلميذ. .

فعن أى شىء سأل الأستاذ؟ وما مغزى السؤال؟

إنها محاولة للكشف عمن طبق العلم على أرض الواقع . .فكان عالما . . عاملا . .

ألا إنه امتحان . . ولكن ليس من جنس امتحانات اليوم:

فليس هو سؤالا . . عن معنى الصيام لغة وشرعا. . ولا عن آداب الجنزة كما قررها العلماء. . كما وإنه ليس سؤالا عن الكرم . . ما هو؟ وإنما هو السؤال الباحث عن القدْوة الرائدة. .

إن ملايين المتعلمين يحفظون المقررات عن ظهر قلب .. وربما ألفوا فيها كتبا وصنعتهم فى المقدمة.. وقليل ما هم أولئك الذين علموا . فعلموا.. وفى طليعتهم أبو بكر رضى الله عنه.. إن مشكلة الأمة الإسلامية اليوم هى: الانفصال المؤسف بين القول .. والعمل ..

وإذا أرادت أن تعود إلى مدها .. فعليها أن تعمل .. ثم بعد ذلك تقول.. أو أن تترك الأعمال تتحدث عن نفسها .. مؤكدة سمة المجتمع الفاضل وهى: العطاء .. من غيْر أن تنتظر أجرا.. تحت إشراف أساتذة مستبصرين.. يحاولون بين الحين والآخر: اكتشاف قيادات جديدة.. بالحوافز المادية والأدبية معا..

وإذا تسعد الأمة بإمامها .. فإنها سعيدة بتلاميذها الذين يقول أحدهم وقد غاب المعلم يوما: اليوم .. أعطى فى غياب المعلم ـ أضعالف ما كنت أعمل من قبل!!

لقد كشفت أسئلة الرسول ﷺ عمن بادر إلى عمل الخير .. كشفت عن معدن أبى بكر الأصيل .. وتفرده فى مروءته .. فكان كما قال عمر رضى الله عنه: ما رأيت كصاحب المروءة أثقل حملا..

لقد كان يصوم تطوعا.. وهذا حق الله تعالى .. وفى صوم التطوع التزام بالطاعة فوق الالتزام بالفريضة.. التى لابد من مباشرتها..

ثم هو مجامل للأياء والأموات معا: يطعم مسكينهم.. ويعود مريضهم.. ويشيع ميتهم.. إنه العابد .. الإنسان..

فهو مسلم: اجتماعى من الطراز الأول.. وقبل هذا فهو عابد زاهد .. لقد كان فى حياته عالى الهمة.. وأعظم ما ابتلى به الإنسان علو المهمة .. لأنها تكلفة كثيرا..

إنه الرجل المعطاء يبذل عطاء لا يخضع لمقياس الربح والخسارة.. ولكنه عطاء الفضل .. عطاء يتوقف عليه مصير الأمة.. فالمقام فيه للفضل .. ولا يكفى العدل.. وكذلك كان أبو بكر رضى الله عنه.

قال أحد الأدباء: كنت فى مستهل حياتى أعطى وانتظر الأجر على العطاء.. إلى أن ألم بى مرض .. وحملونى إلى المستشفى.

وعلى السرير الصغير هناك . . تعلمت أعظم دروس الحياة:

كنت أنظر إلى الأيدى التى تمتد إلىّ لتخفف عنى والعيون التى امتلأت بالرفق وهى تنظر إلىّ . . شفقة علىّ. لقد تعاون الجميع على علاجى . . فعادت الحياة إلى جسدى المنهوك. . وحاولت أن أرد إليهم بعض جميلهم . . فأيقنت أننى مهما بذلت لما استطعت الوفاء بحقهم. .

يوم ذاك . . أحسست أن العطاء لا ينتظر الجزاء . . وأن بإمكانى أن أعطى دون أن أتوقع أجرا. . يوم ذاك . . بلغت قمة النضوج الفكرى والعاطفى]

قوة الكرماء:

إن الكون قوة: فالقوة: أن تغلب نفسك فتعطى. . والضعف: أن تغلبك نفسك فتمسك. .

ومن غلب نفسه فأعطى من ماله وجاهه . . وطاقته كان على غلبة غيره أقدر. . ولو كان هناك عبد مملوك . . ومع ذلك يغلب نفسه. .

هذا العبد هو السيد . . سيد اللئيم الذى يملك . . ثم لا يعطى. .

وإذا كان الأتقياء سادة الاخرة . . فإن الاسخياء سادة الدنيا. .

ولقد كان أبو بكر رضى الله عنه من أسياد الدنيا . والآخرة . . بهذا السبق العظيم فى مجالات الخير والبر.

صعوبة المرتقى:

ولأن المروءة صعبة المرتقى . . فهى بعيدة المنال . . باهظة التكاليف ولأنها كذلك فلا يصلح لها إلا كرم الناس.

ولو كانت المروءة قريبة . . سهلة . . ما ترك اللئام الكرام منها شيئا! ولكنها . . لما ثقل حملها. . واشتدت مئونتها . . حاد عنها اللئام.

فاحتملها الكرام . رحمة بالناس . . ورحمة بكرام الناس أنفسهم. .

حين يتنكر لهم الزمان يوما حتى لا يلجأوا إلى سؤال الئام. .

ثم يصبر الأمر على مثل ما أجابت مع أعرابية سئلت عن أذل الذل وعن الجرح الذى لا يندمل.

فقال: أذل الذل: وقوف الشريف بباب الدنىء.. ثم لا يؤذن له!

وأما الجرح الذى لا يندمل فهو: حاجة الكويم إلى اللئيم .. ثم يرده.. وويل يومئذ للعالم من الجاهل .. والكريم من اللئيم

إنها إذن علامة من علامات الساعة أن يقف الأستاذ بباب التلميذ.. وأن يحتاج الأصيل إلى العويل.. أن تلد الأمة ربتها .. وأن يتطاول الرعاة البهم فى البنيان ثم يتلاعبون بأقدار الإنسان وتشتد مرارة الحياة حين تأتيك اللطمة من دنىء..

وهو ما عبر عن الإباء العربى بقول أحدهم: لو ذات سوار لطمتنى؟!!

وفرارا من هذا المصير الرهيب تجود الحياة بأمثال أبى بكر رضى الله عنه .. والذى نضر الله تعالى به وجه الحياة .. حين أحيا الله بأريحتيه نفوسا .. ولقن البخلاء دروسا

وكانت له فى الإباء والسخاء مدرسة كان شعارها:

لقد زادنى حبا لنفسى أننى   بغيض إلى كل امرئ غير طائل
وإنـى شقـى باللئام ولن ترى   شقيا بهم إلا كريم الشمائل

●●●●●

عن ثعلبة . أبو عبد الرحمن الأنصارى أنه: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله إنى سرقت جملا لبنى فلان:

فأرسل إليهم رسول الله ﷺ. فقالوا:

إنا فقدنا جملا.

فأمر به ﷺ. فقطعت يده.

فقال ثعلبة: أنا أنظر إليه. حين وقعت يده. وهو يقول: الحمد لله الذى طهرنى منك!!

أردت أن تُدخلى جسدى النار(١).

تمهيد:

من قوانين الفكر المادى قولهم: كا واشرب وتمتع. ما دمت ستموت غدا..

من أجل ذلك يهيم المادى كالسائمة كهذا الذى قال عندما انقطع التيار الكهربى عن المدينة: أستطيع الآن أن أحقق أملى فى السرقة بعيدا عن أعين القانون وهكذا عبيد الشهوة دائما: لا يستيقظون من غفلتهم ولا يقومون من عثرتهم وإن قاموا يوما .. فبعد فوات الأوان!!

﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾(٢).

موقف المسلم:

ولكن موقف المسلم مختلف جدا: إنه حتى بعد فعل الطاعة يستغفر ربه:

[وأرباب العزائم والبصائر أشد ما يكونون استغفارا عقيب الطاعات:

لشهودهم تقصيرهم فيها .. وترك القيام بها كما يليق بجلاله وكبريائه.

وأنه لولا الأمر لما قدم أحدهم على مثل هذه العبودية . ولا رضيها لسيده»(٣).

---

(١) أسد الغابة. (٢) الكهف: ٤٩.

(٣) مدارج السالكين ج١/ ١٩٥.

وإذا كان موقف المسلم هكذا بعد طاعته . . فكيف يكون حاله بعد أن يعصى ربه؟ إنه لا يفرح بمعصية أبدا.

[فالمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبدا . ولا يكمل بها فرحة بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط قلبه. ولكن سُكر الشهوة يحجبه عن الشعور بها][1].

[ماذا حدث]

وتعليقا على حديث اليوم نقول أولا: ماذا حدث؟ الذى حدث: أن مؤمنا نزغه من الشيطان نزغ فسرق. . سرق . . وفى أكرم بيئة عرفتها الحياة . . وفى الوقت الذى كان الوحى يتنزل غضا طريا . . وإذن . . فالخطأ ظاهرة بشرية. . وعلينا أن نطب لها: بالحذر . . والاتياط.

دلائل صدق المخطئ:

لم يكن هذا الرجل سارقا محترفا . . وإنما هى لحظة ضعف بشرى. .

انفلت فيها عيارة فكان ما كان . . وفجأة قرر إصلاح ما أفسده:

وكان من الممكن أن يطلق البعير فى الصحراء. . أو أن يتحايل كى يعود البعير إلى صاحبه تخلصا من عقدة الذنب. .

لكنه آثر أن يذهب إلى الحاكم بنفسه . . معترفا بجريمة يعلم عقباها وهو: قطع يده. . ثم الفضيحة على الملأ!!

لقد كان مدفوعا بعوامل فرضت عليه ذلك الموقف الذى تحمل تباعته بشجاعة:

أ ـ لقد تصور عظم من أجرم فى حقه تعالى. .

ب ـ فخاف عذابه فى الآخرة. .

جـ ـ وفى خياله كيف كان شكر نعمة الله عليه . . أن كفرها بهذا العدوان. .

د ـ ولعله ـ أخيرا ـ رأى الناس من حوله شرفاء مرفوعى الرءوس . . بينما هو فى نظر نفسه مهين لا يساوى ملء نخاله!!

(١) نفس الموضع.

وبهذا المزيج من الدوافع قرر أن يركب الصعب.. معترفا.. وبصراحة: إنى سرقت..

لقد كان الرجل يومئذ يتصدق بكل ما وقعت عليه يده من الحلال.. ليتقى النار..

فكيف به من عذاب الذنب العظيم .. إن الأمـر ليتطلب صحوة كبرى ينهى بها ما يلاقى من عذاب ضميره فليحتمل نتيجة تصرفه جزاء عادلا:

إنه لم يعتبر بمن مضى قبله.. فيكن عبرة لمن يأتى بعده!

معنى التوبة:

إن إحساس الرجل بخطيئته كان قويا .. فلم يكتف بالاستغفار كلاما يرطب لسانه وفقط.

وإنما نجده وقد أخذ الموقف العملى .. فقرر أن يشترى جسده كله .. بتقديم يده لله قربانا!

وهو المعنى الذى أشار إليه الإمام على لما سمع رجلا يستغفر فقال له الإمام:

ثكلتك أمك! .. ألا تدرى ما الاستغفار!

إن الاستغفار اسم واقع على ستة معان: الإقلاع فوارا. التندم على ما مضى. أن تؤدى إلى المخلوقين حقوقهم. حتى تلقى الله وليس عليك تبعه. أن تعمد إلى اللحم الذى نبت من سحت .. فتذيبه بالأحزان. حتى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد.

أن تذيق الجسم ألم الطاعة .. كما أذقته حلاوة العصية..

فعندئذ تقول: استغفر الله!!

ولكن كان امتحان الرجل عسيرا .. ولكنه صمم على أن ينجح فيه: إنه لم يعزل مالا سرقه.. عن ماله الحلال ولو كان الأمر كذلك فما أسهل التكليف.. ولكنه عزل يده.. فداء لمستقبله كله.. بل إنه يجعل من التخلص منها نعمة تستحق الشكر..

ويبرز هنا درس ينبغى أن نتملاه:

إذ وصل بالجانى ندمه إلى هذا الحد .. فبأى مشاعر نتعامل معه؟

إنه لا مكان للشماتة هنا:

ما زلت أذكر الفتى الذى كان يردد دائما ولكما أصابت رجلا مصيبة: كان يردد: من أعمالكم سلط عليكم

فلما ابتلاه الله بما هو أشد .. كان صمته أبلغ من الكلام!

يقول ابن القيم(١):

[إن لله تعالى فى أهل طاعته ومعصيته أسرارا لا يعلمها إلا هو: ولا يطالعها إلا أهل البصائر: فيعرفون منها بقدر ما تنال معارف البشر ووراء ذلك ما لا يطلع عليه الكرام الكاتبون..

وقد قال ﷺ:

«إذا زنت أمة أحدكم. فليقم عليها الحد ولا يثرِّب» أى لا يعبّر إن الميزان بيد الله تعالى.. والحكم لله.

فالسوط الذى ضرب به هذا العاصى بيد مقلب القلوب. والقصد: إقامة الحد: وليس التعيير .. ولا يأمن كَرَّات القدر وسطوته إلا أهل الجهل بالله].

من حديثه ﷺ:

[... **إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية**](٢)

ومن مملكة الحيوان .. إلى مملكة الإنسان لتجد نفس المعنى: وذلك ما يشير إليه قوله ﷺ فى رواية أخرى:

[وإن ذئب الإنسان: الشيطان: إذا خلا به أكله].

---

(١) مدارج السالكين ج١/١٩٧.

(٢) النسائى كتاب الإمامة.

وإذ يقعد الشيطان للإنسان كل مرصد . . فالحكمة قاضية بالاحتراز منه على أوفى ما يكون الاحتراز . .

فإذا كان كان الإنسان المستهدف مسلما . . فقد تعين الحذر الشديد. . من حيث كانت عداوة الشيطان له أشد . . لما يملك المسلم فى صدره من كنوز الإيمان. .

واللص الماكر لا يحوم حول البيت الخرب . . ولكنه يستهدف البيت العامر بالكنوز!

والحذر الواجب هنا من التفرق الذى هو غاية الشيطان منا. . حتى لا نمكنه بالتمزق من تحقيق مآربه . . معتصمين بحبل الله جميعا . . باذلين فى سبيل هذه الوحدة كل مرتخص وغال . . ومن شذ . . شذ فى فم الشيطان الذى يفغر فاه. . نحو الفريسة التى توشك بالأنانية أن تقع فى قبضته!

ويعنى ذلك أن الإسلام فى مجمله: سلوك اجتماعى متآلف . . يربط بين أفراد الأمة بالعروة الوثقى . . والتى تصير بها الأمة صفا واحدا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا.

ولكن:

كيف يكون هذا التآلف حقيقة واقعة؟

باستقامة القلب. .

واستقامة اللسان. .

بسلامة القلب من كل ما يقطع العلاقات ويمنع هذا الترابط: بالحقد . . والكبر . . وسوء الظن . . وتمنى الشر للآخرين. . فإذا انحسرت هذه الرذائل لتفسح الطريق أمام فضائل: الحب. . والتواضع . . وحسن الظن . . وتمنع الخير للغير . . وإذا غرف اللسان من هذه العين الطهور فكان نطقه ذكرا وشكرا . . فقد تمت نعمة ربك. .

ولا يبقى بعد ذلك إلا أن تتحول هذه النعمة إلى عاطفة سائدة . . نحرسها . . ثم نراقب ونتابع . . فإذا بدرت من اللسان بادرة تهدد هذا الشمل الجميع. . كان العقاب الوجيع!

وفى بيان ذلك . . نذكر قصة أبى ذر رضى الله عنه: لقد عبر رجلا بسواد أمه . . فقامت الدنيا ولم تقعد . . حتى قال له ﷺ:

[.. إنك امرؤ فيك جاهلية]

وانظر ماذا ترى:

١ ـ إنها شتمة واحدة.

٢ ـ ثم إنها شتمة خِلقية . . لا خلُقية

٣ ـ ومع هذا لم يشفع لأبى ذر رضى عنه ماضيه المشرف فى التجاوز عنها.

٤ ـ ولكن المحكمة الإسلامية تنعقد على مستوى القمة وفورا . . فكان فصل الخطاب فى قضية قد تبدو اليوم أمرا سهلا.

٥ ـ ويتقبل المتهم الحكم بصدر رحب . . بل إنه ليضيف إليه عقابا من نفسه . . على نفسه:

أ ـ فقد أعلن تحسره على ما بدر منه قائلا:

[على ساعتى هذه من كبر السن]

يعنى: بعد هذا الزمان المتطاول . . فى صحبة الإسلام يحدث هذا؟!!

ب ـ ثمّ كان له تصرف عملى: حين وضع خده على الأرض طالبا من صاحب الحق القصاص.

جـ ـ ثم حكم على نفسه ذلك الحكم المؤبد الذى يدمر فى نفسه نزعة الكبر . . وإلى الأبد . . حين عمد إلى حلة له . . فشقها نصفين: يلبس هو نصفها . . وغلامه نصفها!! فلما كان يسأل عن ذلك يقول:

سابيت رجلا فعيرته بأمه . .

لقد كان الصحابى ينظر إلى سلوكه بألف عين . . حتى بفربه من كل شارة جاهلية تهز الرابطة الجامعة . .

وبهذه الروح . . كانت أمتنا عصية على الفناء . . وستبقى كذلك ما بقيت فيها الوحدة . . أملا . . وكانت عملا.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة